يوقنا

سيف الله الأعجمي

بسم الله الرحمن الرحيم

{وما توفيقي إلا بالله}

دكتور/ محمد رجب إبراهيم صيام

رسالتي/ "مساعدة الناس ليقودوا أنفسهم بأنفسهم"

- دكتوراه في إدارة الأعمال، نظرية قيادة الذات، الاكاديمية العربية للعلوم والنقل البحري، ٢٠١٥م.
- ماجستير إدارة الأعمال، الاكاديمية العربية للعلوم والنقل البحرى.
- دبلومة في "التاي تشي" من اكاديمية "شنج تينج" في جمهورية الصين الشعبية.
- دبلومة في إدراة الأعمال، اكاديمية السادات للعلوم الادارية.
- دبلومة في إدارة التسويق، كلية التجارة - جامعة الاسكندرية.
- عدد من الدورات في لغة الجسد، الفراسة، فن الإلقاء.
- مشاركة في تأسيس وإدارة عدد من المؤسسات التجارية والصناعية والخدمية والتعليمية وإدارة الموارد البشرية.
- مشاركة في العديد من البرامج الإذاعية والفضائية.
- مؤسس ومحاضر المبادرة التطوعية **"ابني هرم أحلامك"** في مكتبة الاسكندرية ووزارة الثقافة المصرية.

كتب نُشرت للمؤلف

١- استراتيجيات قيادة الذات - دع حلمك يرى النور.
٢- أنت رئيس جمهورية نفسك.
٣- حظك من السماء – 22 قانوناً لجلب الحظ.
٤- التعايش مع الذات.
٥- كوكب الأثرياء – لماذا يزداد الأغنياء الشرفاء غنىً ويزداد الفقراء فقراً؟

للتواصل

- E-mail: dr.mohmedragab@gmail.com
- https://www.facebook.com/selfleading
-https://www.youtube.com/channel/UCPJDtjtj9AmbNMDE7FqlikQ

شكر وتقدير

- إلى حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي ترك أعظم ميراث؛ سنته العطرة،

- إلى زوجتي وأولادي، ووالدي رحمهما الله، وجميع أهلي حفظهم الله،

- إلى أستاذي الدكتور/ شريف دلاور، والذي تعلمت منه الشغف بالعلم والعطاء،

- إلى كل من دعمني لتقديم المزيد لنحقق معاً الرفعة في الدنيا والآخرة برحمة الله،

- إلى كل لحظة ألم فجّرت في نفسي المزيد من الإصرار بفضل الله،

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}

رؤية

أنتظرك منذ مدة طويلة .. لكنك تأخرت كثيراً! .. لماذا لا تجيبني؟ .. ألست تدّعي أنك رسول الله .. فلعل الله يُطلعك على كلامي إذن ... أرني ما لديك من معجزات ... تكلم أرجوك ... لقد قتلت أخي بسببك .. لقد جعلتني في حيرة شديدة من أمري .. إذا كنت رسول الله حقاً .. فأظهر لي أية تريح بها قلبي.

وبينما يتخيل يوقنا أنه يتحدث إلى سيد الخلق صلى الله عليه وسلم إذ غلبه النعاس، فرأى رؤية، قام على أثرها وهو يتحدث اللغة العربية، وما من إنسان أحبُ إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنّ فرحته لم تدم طويلاً، فقد قطعتها أصواتُ السيوف وهي تتصافح في قسوة معتادة مع هذا النوع من التصافح، وذلك بين جنود المسلمين وبين جنوده عند مدخل قلعته، ليجد نفسه واقفاً بعد قليل أمام أبي عبيدة أمير جيوش المسلمين، والذي تحول فجأة من ألد أعدائه إلى أعز أصدقائه!

دموع طفل

يدخل الوالد على ابنه البالغ من العمر اثني عشر عاماً، فيجد الدموع في عينيه بينما يشاهد نشرة الأخبار، فيبادره: ماذا هناك يا مصطفى؟ لماذا تبكي يا بُني؟

قال مصطفى: أفزعني مشهد جنود الاحتلال في الأراضي الفلسطينية وهم يقتحمون منزلاً ويقبضون على طفل صغير، لقد تخيلت نفسي مكانه .. تخيلت الفزع والرعب الذي أصاب ذلك الطفل وهو يصيبني .. يقتحمون منزلي ويلقون القبض علي بين أهلي، بينما يقف الجميع مكتوفي الأيدي .. لا يستطيع أحد انقاذي .. أليس هذا هو الهوان يا أبي؟ أتسائل أين الإنسانية من ذلك المشهد الذي صار يتكرر كثيراً؟ يا تُرى أي جريمة قام بها طفل في حق دولة تمتلك الأسلحة المتطورة والتي قد لا تملك مثلها العديد من البلاد؟ هل سيعملون على تغيير هويته وعقيدته وتهويده؟ هل والده حي يُرزق ولم يستطع انقاذه؟ أم أنه قد سبقه إلى الأسر في أيدي هؤلاء الذين لا يرحمون الأطفال؟

يقف الوالد واجماً لا يستطيع الرد على تساؤلات ابنه، ثم يبادله نفس الدموع .. دموع العجز والانكسار، ولكنه يحاول أن يتمالك نفسه من جديد، فيقول له: لديك كل الحق يا بُني في كل كلمة تحدثت بها .. ولكن لا تيأس فإن الله تعالى ناصر دينه ولو كره الكارهون.

قال مصطفى: أنت فقط تقول ذلك كي أشعر بتحسن .. أليس كذلك؟

قال الوالد: ربما يبدوا كلامي غير واقعي ولكنه في الحقيقة واقعي للغاية .. تأكد أنه مهما طال الزمان وزاد الظلم فإن الله تعالى ناصر دينه وناصر أولياءه.

قال: كيف ذلك وهم الأقوى ونحن متفرقون ولا نملك أي قوة لردعهم؟

قال: يا بُني .. إن الله يقول: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، ويقول أيضاً: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} .. لعل الله ينصرنا بهدايتنا وتوحيد كلمتنا .. أو لعله يهلك الظالمين بالظالمين .. أو لعله تعالى ينصرنا ببعض هؤلاء الظالمين.

يتعجب مصطفى: وكيف ذلك؟ .. كيف ينصرنا الله بالظالمين؟

قال: بأن يهدي أحدهم فيتحول من نصرة الباطل إلى نصرة الحق.

يتمعض وجه مصطفى وهو يقول: أنت تقول فقط ذلك يا أبي كي تخفف عني .. أليس كذلك؟

- لا يا بُني.. إنها حقيقة وقد حدثت كثيراً في السابق .. مثلاً هذا القائد الرومي يوقنا .. فقد هداه الله إلى الاسلام، وجعله سيفاً من سيوفه التي لم تهزم أبداً ..

- يوقنا! لم أسمع به من قبل .. من هذا الشخص؟ وكيف لم يُهزم قط ولا أحد يعرفه! أليس خالد بن الوليد هو سيف الله المسلول الذي لم يُهزم أبداً قبل إسلامه وبعده؟

- يا مصطفى .. عليك أن تقرأ بنفسك عن هذه القصة أولاً ثم نتناقش .. فإن المعرفة التي تأتي بسهولة سوف تنساها بسهولة .. الشئ الوحيد

الذي سأخبرك به هو أن يوقنا لم يُهزم أبداً، قبل إسلامه أو بعده .. لذلك فإني أُطلق عليه لقب:

"سيف الله الأعجمي"

- حسناً يا أبي .. أعرف أنك لا تغير رأيك بسهولة .. إذن .. لقائنا غداً بإذن الله .. سوف أكون جاهزاً للحوار حول هذا الشخص .. ما هو اسمه؟ لقد نسيته.

- ألم أقل لك .. ما يأتي بسهولة يُنسى بسهولة .. إن اسمه يوقنا ... ولكن لا تتحادق علي .. فلن أخبرك بأكثر من اسمه.

في اليوم التالي، بدلاً من مشاهدة مصطفى للأخبار، جلس يقرأ سيرة أبطال الإسلام السابقين ممن حرروا بيت المقدس من الظلم والاضطهاد، وكان تركيزه على هذا البطل الذي لم يُعرف عنه أي شئ قبل اليوم، ثم جلس مصطفى مع والده والذي بادره:

- كيف حالك اليوم يا مصطفى .. لعلك قرأت شيئاً عن يوقنا.

- بالطبع يا أبي .. لقد بدأت في القراءة عنه ..

- إذن أخبرني ماذا عرفت.

- أنا أحكي لك! .. المفترض أنك من يفعل ذلك.

- أنت تبدأ يا بُني وأنا أكمل بإذن الله.

- إذن سأحكي لك ما قرأته اليوم .. وهو عن مدينة حلب.

مدينة حلب

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثم الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، جاء الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليستكمل فتوحات الإسلام وتحرير البلاد والعباد من ظلم الرومان، الذين اغتصبوا بلاد الشام، وقهروا أهلها ومنعوا حرية الأديان، وكان جيش المسلمين بقيادة الصحابي الجليل أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ويساعده في ذلك سيف الله المسلول خالد بن الوليد ومعهما عدد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً.

حينها كانت مدينة حلب يحكمها أخوان، أحدهما يُدعى يوقنا والآخر يوحنا، وكان أبوهما ملك البلد وممتلكاته إلى حدود نهر الفرات، وقد ملك حلب سنوات طويلة لا ينازعه فيها أحد، حتى كان هرقل ملك الروم يهابه لبقاء ملكه وقوة بطشه وكثرة شره وشدة بني عمه، وكان الملك وأهله يقيمون في قلعة خارج المدينة، يبدوا أنها لم تُبنى لحماية المدينة بل لحماية الملك ومن معه. فلما مات الملك آل الأمر من بعده لابنه الكبير يوقنا والذي كان شجاعاً ومقداماً في الحروب، بينما كان أخوه يوحنا راهباً وعالماً بأمور دينه، حتى أنه كان أعلم أهل زمانه؛ ولا همة له إلا عمارة الكنائس والأديرة.

لما بلغ الخبر أهل مدينة حلب أن جيش المسلمين قد قصد بلادهم، بعدما فتحوا مدينتي عنوة وقنسرين صُلحاً، وأن خيلهم تضرب إلى العواصم والبقاع، قرر يوحنا ويوقنا الاجتماع في القلعة ليلاً وحدهما للتشاور.

قال يوقنا: يا أخي ألا ترى ما نزل بنا من العرب الجياع العراة، وما حل بأهل الشام منهم من القتل والنهب وأخذ الأموال؟ إنهم لا ينزلون مدينة إلا فتحوها وملكوا أهلها، وكأنّي بهم وقد أشرفوا علينا، فما ترى أن تصنع في أمر هؤلاء؟

قال يوحنا: يا أخي إذ قد استشرتني في أمرك، فإني وإن كنت أصغر منك سناً، فإني أعلم منك بصيرة، فوحق المسيح والقربان، لئن قبلت مشورتي، ليعلون أمرك ويسلم مالك ونفسك.

فقال يوقنا: يا أخي ما علمتك إلا ناصحاً، فما عندك من الرأي؟

قال يوحنا: الرأي عندي أن ترسل رسولاً إلى العرب، وتسألهم الصلح، وتتفق معهم على مبلغ يُدفع لهم كل عام ما دامت الغلبة لهم.

فلما سمع يوقنا كلام أخيه، أقبل عليه غاضباً، وقال له: ما أعجز رأيك .. ما ولدتك أمك إلا راهباً .. والرهبان ليس لهم قلوب .. فهم يأكلون العدس والزيت ولا يأكلون اللحم .. ولا يعرفون النعيم .. وليس لهم بالقتال بصيرة .. ولا بملاقاة الرجال خبرة ... أما أنا فملك ابن ملك وليس بيني وبينهم إلا الحرب ... ويلك .. كيف نُسلّم ملكنا للعرب من غير حرب ولا قتال!

فلما سمع يوحنا ذلك من أخيه تعجب كل العجب، وقال:

- يا أخي وحق المسيح إن أجلك قد اقترب .. فأنت تحب سفك الدماء وقتل النفس ... وما أظن جموعك أكثر من جموع الملك هرقل التي جمعها في اليرموك وفي أجنادين .. إن هؤلاء القوم قد أيدهم الله علينا.

فأجابه يوقنا غاضباً: قد أكثرت في مدحك العرب .. واعلم أني جمعت الأموال لأدفع بها الأذى عن نفسي .. وإني مجمع على قتال العرب .. فإن أظفرني الصليب بهم وأعانني المسيح عليهم طلبتهم إلى أن أدخل خلفهم الحجاز وأسود على سائر الملوك وأرجع إلى الشام ملكاً لا يقدر أحد أن ينازعني ... وإن هزمتني العرب تحصنت في قلعتي .. فإن فيها من الزاد والأطعمة ما يكفيني طول دهري وأكون فيها عزيزاً إلى أن أموت .. ولا ألقي يدي إلى العرب ولا ابذل أموالي من غير طلب .. فلا تعارضني وإلا بطشت بك قبلهم.

قال يوحنا له: كلامك علي حرام حتى ترجع إلى رأيي وتعود إلى قولي.

في اليوم التالي، جمع يوقنا جميع من التجأ إليه من الأرمن والعرب المتنصرة .. ومنحهم السلاح وفرق فيهم الأموال وجعل يُهوّن عليهم العرب، وعزم على قتال المسلمين قبل أن يصلوا إليه، ثم عمد إلى أحد قادته وضم إليه ألف فارس ووكله بحفظ بلده، وسار يوقنا بمن معه كي يلقى جيش أبي عبيدة في اثني عشر ألف جندي مدرع بخلاف من كان معه بغير درع، ونُشرت أمامه الأعلام والصلبان من الذهب، وحولهم ألف غلام عليهم ثياب الحرير المذهبة.

توقف مصطفى عن الكلام، بينما كان والده ينصت إليه باهتمام، ثم قال له والده: لقد أسعدتني يا بُني .. فقد جعلتني أنصت إليك وكأنّي أسمع القصة لأول مرة ..

قال مصطفى: حقاً يا أبي .. إذن سأكملها لك كلها .. ليس فقط من أجلك ولكن من أجلي أيضاً .. فقد استمتعت بمعرفة تلك القصة .. أشعر أنها قصة رائعة وأن الشر بداخل يوقنا سوف يتحول إلى خير كبير بإذن الله.

قال الوالد: وأنا في انتظارك في الغد .. لتكمل لي ما قد بدأت.

في اليوم التالي، كانت الأحداث في الأراضي المحتلة كما هي، ايذاء وأسر واضطهاد للأطفال، والعالم يشاهد ولا حراك سوى بعض التعليقات، وكأنّهم يشاهدون مبارة رياضية، وكان مصطفى كلما شعر بالغضب عاد لقراءة قصة يوقنا وما فعله مع المسلمين وما فعله معه جيش المسلمين بقيادة أمين الأمة وسيف الله المسلول معه، حتى عاد والده من العمل، وجلسا معاً، فبادره والده: كيف حالك اليوم يا مصطفى؟

قال مصطفى: للأسف يا أبي .. ما زال الاضطهاد شديد للأطفال .. ولكني شغلت نفسي بقراءة قصة يوقنا .. واليوم قرأت عن بطل جديد من أبطال المسلمين، يُدعى كعب بن ضمرة وهو أول فارس مسلم يواجه يوقنا قبل وصول جيش أبي عبيدة إلى مدينة حلب.

قال الوالد: متشوق لأسمع منك قصة كعب يا بُني .. فهيا إنني منصت لك.

يوقنا في مواجهة كعب بن ضمرة

كان أمين الأمة أبو عبيدة قد أقام في مدينة قنسرين بعد أن فتحها بالصلح، ووصله كتاب من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره أن يبعث إلى يزيد بن أبي سفيان طائفة من جيشه، فبعث له بثلاثة آلاف فارس، ثم عزم أبو عبيدة على السير إلى حلب فدعا برجل يُدعى كعب بن ضمرة، وكان بطلاً معروفاً لا يهاب الحرب، وضم إليه ألف فارس، وكلفه أن يعرف أخبار يوقنا، وأخيره أنه راحل من ورائه، فاتجه كعب إلى مدينة حلب.

من ناحيته، كان يوقنا قد أرسل عيوناً يأتون إليه بالأخبار، فعلم أن هناك ألف فارس من العرب قد أوشكوا على وصول بلده وأمامهم فقط ستة أميال، فأقام يوقنا كميناً وقسّم جيشه نصفين؛ أحدهما معه والآخر مع الكمين، ثم سار إليهم ومعه خمسة آلاف فارس، فلما أقترب من المسلمين وكانوا على نهر يشربون، فنادى المسلمون بعضهم بعضاً وركبوا خيولهم، وكان كعب بن ضمرة في المقدمة فلما نظر إلى يوقنا وجيشه، صاح في أصحابه: يا أنصار دين الله ... إني نظرت عسكر عدوكم وحزرته فهو في خمسة آلاف .. وهم لكم مغنم .. يقاتل الواحد منكم خمسة.

فأجابوه جميعاً بالموافقة، وأقبلوا يشجع بعضهم بعضاً، وصاح يوقنا في فرسانه وأمرهم بالحملة على المسلمين، والتقى الجمعان وقاتلوا قتالاً شديداً، وأيقن المسلمون بالنصر، ولكن كمين يوقنا فاجئهم من خلفهم وهم في القتال، حتى ظنوا أنهم هالكون بعدما كانوا موقنين بالغلبة، ولم

يكن هناك بُد من القتال، فافترق المسلمون ثلاث فرق؛ فرقة منهزمة وفرقة قاتلت الكمين وفرقة مع كعب بن ضمرة لقتال يوقنا ومن معه، وقاتل كعب ومن معه قتالاً شديداً ووهبوا أنفسهم لله تعالى، وظل كعب يجول بالراية ويصيح ليثبت الفرسان معه ويقول: "اثبتوا .. إنما هي ساعة ويأتي النصر .. وأنتم الأعلون"، وفشت الجروح في أصحابه وقُتل منهم مائة وسبعون رجلاً، منهم الصحابي سهيل بن مفلج رضي الله عنه وكان ممن شهد تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم، ووُجد فيه أربعون طعنة ليس بينهم واحدة في ظهره، وما قُتل فارس من المسلمين إلا بعد أن قتل عدداً من المشركين، فلما نظر جنود يوقنا إلى ثبات المسلمين مع قلتهم، هموا أن ينهزموا، ولكن يوقنا ثبتهم وصاح فيهم: "ويلكم ما العرب إلا مثل الذئاب .. إن صُدمت ولت وإن تُركت طمعت".

نظر كعب إلى من قُتل تحت إمرته فأغتم كثيراً، ونزل عن فرسه ولبس درعاً من فوق درعه ومسح وجه فرسه وقبله بين عينيه، وكان هذا الفرس قد جاهد معه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أطلق عليه اسم "الهطال"، فقال له: "يا هطال .. هذا يومك المحمود عاقبته .. فاثبت للقتال في طاعة الله"، ثم وقف ينظر إلى القتلى والراية في يده على أمل أن تصله طليعة تنجده، ولكن لم يظهر شئ في الأفق.

قاطع الوالد ابنه مصطفى وسأله: وهل تعلم لماذا تأخر عليه أمين الأمة؟

قال مصطفى: لقد خرج أهل حلب إلى أبي عبيدة يريدون الصلح معه، وذلك أنه لما ذهب يوقنا إلى حرب المسلمين، اجتمع مشايخ أهل حلب وقالوا: "إن هؤلاء العرب قد أطاعهم بعض أهل النصرانية ودخلوا في دينهم، ومنهم من قاتلهم فخسر، فعلينا أن نسير إلى قائدهم ونصالح عن مدينتنا وندفع إليه من أموالنا، فإن ظفر المسلمون بالبطريق يوقنا نكن في أمان، وإن صالح يوقنا القوم نكن قد سبقناه إلى الصلح، وإن غلب ورجع سالماً لم نُعلمه"، فخرج منهم ثلاثون رجلاً من رؤسائهم وسلكوا طريقاً غير طريق يوقنا، حتى وصلوا معسكر المسلمين، فنادوا "الغوث .. الغوث"، وكان العرب قد علمت أن الغوث بالرومية يعني الأمان، فمن قالها لا يقتلوه كي لا يطالبهم الله بدمه يوم القيامة، فلما سمع المسلمون ذلك أسرعوا إليهم، وأحضروهم إلى قيادة الجيش.

تحاور قادة الجيش حول أمرهم، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: "إن هؤلاء يطلبون الصلح والأمان لأنفسهم"، فقال له أبو عبيدة: "إن صالحوني صالحتهم"، ولم يكن أبو عبيدة يعلم ما أصاب كعب وفرسانه من القتل، وكان قدومهم ليلاً وبعض المسلمين في صلاتهم يتلون القرآن، فجعل أهل حلب يقول بعضهم لبعض: "بهذه الصلاة يُنصرون علينا"، فلما سمع الترجمان كلامهم، أخبر به أبا عبيدة.

ثم قال لهم أبو عبيدة: إنا قوم قد سبقت لنا العناية من ربنا، وإنا لا نريد من الله ورسوله بدلاً ولا نجزع من قتال الأعداء .. كيف نصالحكم وقد بلغنا أن بطريقكم يوقنا قد صمم على قتالنا وقد حصن قلعته وجعل فيها ما يقوته سنين واتخذ الجند وأكثر من ذلك؟ .. ما لكم عندنا صلح.

فقالوا: أيها الأمير .. إن صاحبنا قد خرج من عندنا يريد حربكم.

قال أبو عبيدة: ومتى خرج؟

قالوا: خرج سحراً ونحن من بعده .. وسلكنا طريقاً غير طريقه .. وإنا نرجوا أن يُهلك لأنه ركب البغي ولم يرض بالصلح وقد أطاع هواه.

فلما علم أبو عبيدة ذلك غضب وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. هلك والله كعب ومن معه .. إنا لله وإنا إليه راجعون .. لا صُلح لكم عندنا.

فخافوا على أنفسهم وقالوا: إنا قد اجتمع عندنا من القرى خلق كثير .. فإن صالحتمونا عمرنا لكم الأرض وعشنا في ظلكم أيام عدلكم .. وإن أبيتم فر الناس عنكم وطلبوا أقصى البلاد وشاع الخبر أنكم لا تصالحون فلا يبقى حولكم أحد.

ثم تقدم منهم رجل يُدعى دحداح يتحدث العربية بفصاحة فقال: أيها الأمير .. أنصت إلى ما ألقيه إليك من العلم الذي أنزل الله في الصحف على الأنبياء.

قال أبو عبيدة: لنسمع .. فإن كان حقاً علمناه وإن كان غير حق لا نسمعه ولا نعمل به.

قال دحداح: إن الله أنزل على أنبيائه يقول: أنا الرب الرحيم خلقت الرحمة وأسكنتها في قلوب المؤمنين .. وإني لا أرحم من لا يرحم .. من أحسن أحسنت إليه .. ومن تجاوز تجاوزت عنه .. ومن عفى عفوت عنه .. من طلبني وجدني .. ومن أغاث ملهوفاً أمنته يوم القيامة

وبسطت له في رزقه وباركت له في عمره وأكثرت لـه أهلـه ونصـرته علـى عدوه ... ومـن شكر المحسن علـى إحسـانه فقد شكرني ... أيهـا الأمير لقد أتيناك ملهوفين خائفين فأقل عثراتنـا وآمـن روعاتنـا وأحسـن إلينا.

فبكـى أبـو عبيـدة مـن قولـه، وقـرأ قـول الله تعـالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِـبُّ الْمُحْسِنِينَ}، ثم صلى على محمد وعلى جميع الأنبياء، وقال: بهذا والله أُرسل نبينا .. أرسله الله إلى جميع الخلق .. والحمد لله على هدايته لنا.

ثم أقبل أبو عبيدة على المسلمين وفيهم من المهاجرين والأنصار، وقال لهم: إن هؤلاء أهل متجر وضياع .. وهم مستضـعفون .. وقد رأينـا أن نُحسن إليهم ونصالحهم ونطيب قلوبهم .. ومتى كانت المدينة فـي أيدينا والسوقة معنا فإنهم يُعلموننا بما يعزم عليه عدونا ويكونون عوناً لنا.

قال رجل من المسلمين: أصلح الله الأمير .. إن مدينة القوم بـالقرب مـن القلعـة ولا نـأمن أنهـم يـدلون علـى عوراتنـا ويخبـرون بأحوالنـا .. وقد خرج بطريقهم يبغي قتالنا .. فكيف يطلب هؤلاء الصلح! لا شك أنهم مكروا بكعب بن ضمرة ومن معه من المسلمين.

فقال أبو عبيدة: أحسن ظنك بالله وثق بالله .. فإن الله ينصـرنا ولا يُسلّط علينا عدونا .. فرحم الله من قال خيراً أو صمت.

هنا قاطع الوالد مصطفى وقال: وما رأيك يا مصطفى فـي هذا الموقف لو كنت هناك .. ماذا كنت لتقول .. هل تقبل بالصلح؟

قال مصطفى: يا أبي .. إنني أصغر من ذلك .. ولكن الأمر محير جداً .. ربما يكونون بالفعل صادقين وربما لا .. ولكني قرأت في القرآن الكريم أن الله تعالى يقول: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، ثم قال في الآية التي تليها: {وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} .. أعتقد لقد أصاب أمين الأمة رضي الله عنه .. وإن كان الحذر واجباً أيضاً .. وهذا ما فعله أبو عبيدة.

قال الوالد: وكيف ذلك؟

قال: أقبل أبو عبيدة رضي الله عنه على القوم وقال لهم: إني أريد أن تبذلوا في صلحكم ما بذله أهل قنسرين.

فقالوا: أيها الأمير إن قنسرين أقدم من مدينتنا وأكثر جمعاً ومدينتنا خالية من السكان لظلم أميرنا .. فقد أخذ أموالنا وأصعد الجميع إلى قلعته وما بقي عندنا إلا الضعفاء ومن لا ماله له ... وإنا نسألك الترفق بنا والعدل فينا والإحسان إلينا.

فقال أبو عبيدة: فما الذي تريدون أن تبذلوا في صلحكم؟

قالوا: نعطي نصف ما أعطى أهل قنسرين.

فقال أبو عبيدة: قد قبلت منكم ذلك على أننا إذا نزلنا بصاحبكم أعنتمونا بالميرة وتبيعون وتشترون في عسكرنا ولا تكتموا عنا خبراً تعلمونه من أعدائنا ولا تتركوا جاسوساً يتجسس علينا .. وإن رجع إليكم بطريقكم منهزماً تمنعوه أن يصل إلى القلعة.

فقالوا: أيها الأمير أما قولك أن نمنع البطريق ألا يصعد إلى القلعة فما نجد إلى ذلك من سبيل.

قال أبو عبيدة: فلا تمنعوه من الصعود إلى القلعة .. وعليكم عهد الله وميثاقه والإيمان المؤكدة الغليظة أن لا تقولوا هذا القول .. وأن توفوا لنا كل شرط تم عليكم.

ثم حلفهم بالأيمان التي يعرفونها، فحلف القوم عن آخرهم، وصالحوا عن رجالهم ودوابهم وأبنائهم ونسائهم وعبيدهم، وانتهوا على ذلك.

فقال أبو عبيدة :إنكم قد حلفتم وقد قبلنا قولكم .. فإن أصبنا أحداً قد أخلف أو علم من البطريق علماً ولم يعلمنا به فقد وجب عليه القتل وأخذ ماله وولده حلال لنا لا يطلبنا الله بذمته ... ومتى نقضتم ما شرطنا عليكم فلا عهد لكم عندنا ولا ذمة لكم علينا ولنا عليكم الجزية في العام المقبل.

فرضي أهل حلب بما شرطه عليهم أبو عبيدة وأخذ عهدهم وكتب أسماءهم، وحينما عزموا على الإنصراف، عرض عليهم أن يرسل من يسير معهم إلى مأمنهم كي يعودوا سالمين إلى بلدهم، فأخبروه أنهم لا يريدون أن يُرى أحد من المسلمين معهم، كي لا يعرف يوقنا بالصلح بينهما، ورجعوا من ليلتهم وأشرقت الشمس قبل وصولهم إلى حلب، ولما أشرفوا عليها نظر إليهم أحد أتباع يوقنا فسألهم، فظنوا أنه من أهل حلب، فأخبروه بصلحهم مع أبي عبيدة، فتركهم وأقبل مسرعاً على معسكر يوقنا، فأخبره أن أهل حلب قد صالحوا العرب، فخشي

يوقنا على قلعته أن يملكوها في غيبته، فرجع إليها مسرعاً، بعدما قتل من المسلمين ما يقرب من المائتين.

قال الوالد: إذن لقد أصاب أبو عبيدة رضي الله عنهم، فعصم دماء الأبرياء وجعل الله في ذلك الصلح رجوع يوقنا عن قتال كعب وأصحابه.

قال مصطفى: نعم يا والدي .. لقد مكر الله للمسلمين المكر الطيب ونجّى المسلمين من قتل محقق على يد يوقنا، وقد حكي كعب بن ضمرة عن ذلك اليوم، فقال: "كنت ذلك اليوم صاحب القوم أثبتهم في الحرب .. وإلى الحرب أنهضهم بهمتي وأدفع عنهم بمهجتي .. فإذا أجحفني القتال التجأت إلى أصحابي وأنا أتوقع فرجاً من الله تعالى وأترقب راية أبي عبيدة أن تطلع ... ولم تزل الحرب بيننا يوماً وليلة إلى الصباح من اليوم الثاني .. فأقسم بالله إن كان أحدنا ليصلي ولا زاد يأكله ولا ماء يشربه ... وأنا بين اليأس والرجاء أترقب طريق قنسرين أن تطلع منه علينا راية الإسلام .. فما أرى لها أثراً .. فرأيت عند الصباح جيش العدو وقد اضطرب من جوانبه وقد علت لهم ضجة عظيمة .. فقلت ما هذا إلا مدد لحقهم .. فالتجأت إلى كلمة الشدائد وهي لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ... فوعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قلت الكلمة حتى رأيت جيش العدو وقد انكشف عنا .. فقلت الحمد لله حمد الشاكرين .. وإني أظن أن صائحاً صاح بهم من السماء فبددهم أو ملائكة نزلت عليهم كيوم بدر فلم أرى لهم أثراً .. فهممت أن أتبعهم .. فصاح المسلمون إلى أين يا كعب؟ .. أما كفاك ما

نحن فيه؟ انزل بنا إلى الأرض وارضى بما نحن فيه من التعب ونؤدي فرضنا ونريح خيولنا ... فما رد الله هؤلاء القوم إلا بمشيئته وقدرته".

من ناحيته، أنتظر أبو عبيدة حتى صلى الصبح، ثم أقبل على خالد بن الوليد وقال له: يا أبا سليمان .. إن أخاك أبا عبيدة ما رقد الليلة غمضاً .. وإنه كان يجب علينا الشكر بما فتح الله علينا .. وإن نفسي تحدثني بأن الذين مع كعب بن ضمرة قد قتلوا .. لما أخبرني هؤلاء الذين يسألون الصلح أن صاحبهم يوقنا قد سار إليهم .. وأظن أنه صادف أصحابنا وقتلهم.

ثم سار أبو عبيدة وجيشه يريدون حلب، فما كان غير بعيد حتى أقبلوا على كعب بن ضمرة ومن معه وكانوا نياماً، فلما أقبل عليهم خالد والراية في يده، رآها الحراس فصاحوا، فقاموا جميعاً واستقبلوا جيش المسلمين، ونزل خالد وسلّم عليهم وأقبل عليهم أبو عبيدة، ثم نظروا إلى موضع قتلى المسلمين، فقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. إنا لله وأنا إليه راجعون، وسأل أبو عبيدة عن مقتلهم، فأخبره كعب بقتال يوقنا وأنهم كانوا على وشك الهلاك، فلما أصبحوا إذ بأعدائهم قد انقلبوا راجعين من غير قتال، ولله الحمد.

فقال أبو عبيدة: سبحان مسبب الأسباب .. ليت أبا عبيدة قتل أمامهم ولم يقتلوا تحت رايته.

ثم أمر أبو عبيدة بدفن المسلمين بعدما صلى عليهم، وتم دفنهم بأسلابهم ودمائهم، ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يحشر

الله الشـهداء الـذين قتلـوا فـي سـبيل الله يـوم القيامـة ودمـاؤهم علـى أجسادهم؛ اللون لون الدم، والـريح ريـح المسك، والنـور يـتلألا علـيهم، ويدخلون الجنة".

ثم قال أبو عبيدة إلى خالد: إن كان عدو الله يوقنا رجع إلـى القوم وعلـم بصلحهم لنا فيلقون منـه تعبـاً عظيمـاً، فـألحق بهم، فقد وجب علينـا أن نذب عنهم لأنهم تحت ذمتنا.

هنا توقف مصطفى عن سرد القصة وقال: يبدوا أن لديك الحق يـا أبـي أن يوقنا قائد لا يُهزم .. ففي لقائه مع كعب بن ضمرة لم يستطع البطـل المسلم كعب رضي الله عنه الانتصار عليه، فقد أعد لـه كمينـاً وكـاد أن يُقتل كعب ومن معه جميعاً لو ستر الله أن تراجع يوقنا خوفاً على قلعته من أهل حلب .. والله لطيف بعباده.

قال الوالد: أعتقد يا مصطفى أنك تأثرت بكلامي وتعجلت الحكم عليـه، فهنـاك الكثيـر مـن الأحـداث لـم تعلمهـا بعـد حتـى تحكـم بنفسـك، ولكنـي أريـدك أن تعلـم أن الله تعـالى مـنح بعـض عبـاده مميـزات قبـل إسـلامهم جعلها سبباً في رفعتهم بعد إسلامهم .. مثلاً خالد بن الوليد لم يُهزم أبـداً مما جعل له سمعة قوية بين أعداء الإسلام يهابونـه قبـل أن يلقـوه .. وقـد تكرر الأمر مع يوقنا .. فهو داهية من دواهي الروم وقائـد جـرئ ولديـه فكر منظم للغاية .. ثم إنه قوي جداً .. وحينمـا يـؤمن مـن كـل قلبـه بشـئ فإنه يفعل من أجله أي شئ .. لذلك قتل يوقنا أخاه يوحنا.

قـال مصـطفى: مـاذا؟ هـل قتـل يوقنـا أخـاه بـالفعـل؟ .. لـو فعـل هـذا لـن أسامحه أبداً.

قال الوالد: ولكن الله تعالى قد سامحه .. فقد دفعه الجهل إلى ذلك ثم أسلم وندم على خطأه .. وحينما تقرأ ما حدث بالتفصيل وتقرأ القصة كلها، فإنك ستغير رأيك تجاهه بإذن الله، وغداً أنتظرك تقص علي المزيد.

قال مصطفى: بإذن الله يا أبي.

وفي اليوم التالي بمجرد أن جلس مصطفى مع والده بدأ يقص عليه الأحداث.

يوقنا يقتل يوحنا

قال مصطفى: كان يوحنا راهباً لديه الكثير من علم أهل الكتاب، وقد نهى أخاه يوقنا عن قتال المسلمين، كما نهاه عن ظلم وقتل أهل حلب، ولكن يوقنا رفض وقال له: "أما أنا فملك ابن ملك وليس بيني وبينهم إلا الحرب .. ولا ترى الملوك العجز .. كيف نسلم ملكنا العرب ونعطيهم القيادة من أنفسنا من غير حرب ولا قتال"! وسيطر الغضب على قلب يوقنا وسولت له نفسه قتل يوحنا، لكنه لم يجرأ في وقتها، وحينما وصل أبو عبيدة إلى مدينة حلب، كان يوقنا قد أوشك على قتل أهلها.

كان يوقنا يصيح في أهل حلب ويقول: ويلكم صالحتم العرب وصرتم عوناً لهم علينا! إن المسيح لا يرضى بفعلكم .. لأقتلنكم عن آخركم أو تخرجون معي إلى قتال العرب وتنقضون ما بينكم وبينهم من العهد .. أخبروني .. من بدأ بهذا الأمر؟

رفض أهل حلب أن يخبروه بأسماء من بادر إلى مصالحة المسلمين، فأمر يوقنا جنوده أن يقتلوا بعض مشايخهم كي يكونوا عبرة للجميع، فهجم جنوده عليهم وجعلوا يقتلونهم على فرشهم وأبواب منازلهم، وسمع يوحنا الضجة والصياح بين الناس، فذهب إلى أخيه ونظر إليه وهو يقتل في أهل حلب، وقد قتل منهم ثلاثمائة.

فغضب يوحنا وقال لأخيه: على رسلك .. فإن المسيح يغضب عليك .. وقد نهانا أن نقتل عدونا .. فكيف بمن هو على ديننا؟

قال يوقنا: لقد صالحوا العرب عن البلد وصاروا لهم عوناً علينا.

فقال يوحنا: وحق المسيح لن تبقي عليك العرب أبداً .. وإن لهم من يقتص منك.

قال يوقنا: ومن يقتص مني؟

قال يوحنا: المسيح يقتلك كما قتلتهم بغير ذنب.

فقال يوقنا غاضباً: أنت حملتهم على ذلك .. وأنت أول من أبطشُ به.

ثم قبض على أخيه وجرد سيفه ليعلوه به، فلما نظر يوحنا إلى أخيه وعلم أنه سيقتله، رفع رأسه إلى السماء، وقال: "اللهم اشهد على أني مسلم وأني مخالف لدين هؤلاء القوم .. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ... ويا أخي اصنع ما أنت صانع .. فإن كنت قاتلي فإني صائر إلى جنات النعيم".

فعظم على يوقنا إسلام أخيه، وزاده غضباً شعوره بغدر أهل حلب، وبتهديد المسلمين لمدينته، وباقتراب زوال ملكه، فدفعه الغضب إلى قتل يوحنا ثم ألقى برأسه ليكون عبرة لكل من يخالف أمره، وظل أهل حلب يستغيثون به من القتل فلا يجيبهم، وجرت الدماء في الطرقات حتى تلون التراب باللون الأحمر، وغلبت رائحة الدماء رائحة الشجر المزهر، وزاد الضجيج والصياح، وارتفعت أصوات النساء بالنياح، وأوشك أهل حلب على اليأس من النجاة من هؤلاء المجرمين، وبينما هم كذلك إذا بالفرج يأتي على نواصي خيول المسلمين، وعلت رايات الحق والتوحيد، بقدوم سيف الله خالد بن الوليد، فلما نظر خالد إلى ما أصاب أهل حلب من التنكيل، وسمع أصوات البكاء والعويل، قال خالد لأبي عبيدة: "أيها الأمير .. هلك والله أهل صلحك"، فحمل على جنود

يوقنا وحمل معه الموحدون، وأعانهم الله عليهم فهم جنوده المخلصون، وقتلوا منهم أكثر من ثلاثة آلاف جندي، ونظر يوقنا إلى جنوده القتلى فكاد يبكي، فانسحب إلى القلعة ومعه بطارقته وأهله وجنده، وأغاث الله أهل حلب فهم لعهدهم قد صدقوا.

وصعد يوقنا ومن معه إلى القلعة الحصينة، وكان مستعداً أشد الاستعداد للحصار، فنصب المجانيق ونشر الحراس على الأسوار. أما أهل حلب فكان لديهم أربعون أسيراً من البطارقة، فسلموهم إلى المسلمين، فسألهم أبو عبيدة: لأي سبب أسرتم هؤلاء؟ فأخبروه أنهم من أصحاب يوقنا .. فوجب تسليمهم لأنهم ليسوا منهم ولا معهم في الصلح، فقال لهم أبو عبيدة: "لقد نصحتم في صلحكم .. وسترون منا ما يسركم .. وصار لكم ما لنا وعليكم ما علينا".

ثم سألهم أبو عبيدة عن طريقة لدخول القلعة، ووعدهم أن يجعلها لهم غنيمة إذا فتحها الله، فقالوا: "والله ما نعرف لها عورة .. إن يوقنا قد قطع مسالكها ووعر فجاجها وهذا ما نعلمه .. ولولا أنه قتل يوحنا لكان أخذها سهلاً لكم"، ثم أخبروه عن قصة إسلام يوحنا، وأنه قبل قتله رفع يديه إلى السماء وقال: "اللهم إني أشهد أن لا إله إلا أنت وأن عيسى عبدك ورسولك ومحمداً عبد ورسولك .. ختمت به الأنبياء وجعلته سيد المرسلين ..ولا دين أعلى من دينه". فلما علم أبو عبيدة بإسلام يوحنا، سأل عن موضع قتله، وأخذ معه جماعة من المسلمين وأتوا إلى موضع قتله، فوجده ملقى على ظهره وكأنّه البدر، مشيراً بأصبعه إلى السماء، فأخذه أبو عبيدة وكفنه وصلى عليه ودفنه في مقام إبراهيم.

هنا التفت الوالد إلى ابنه فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك يا مصطفى؟

قال مصطفى: لقد تأثرت بإسلام ووفاة يوحنا، ذلك الأخ المسلم الذي لم أعرف عنه قبلها أي شئ .. وقد ضحى بنفسه دفاعاً عن الحق وعن أهل بلده حلب .. مؤثراً القتل في سبيل الله على العيش في رفاهية القصور .. بينما كان يستطيع أن يلتزم الصمت .. كما يلزمه الآن الكثير من الخلق .. لقد كان يوقنا قاسياً للغاية.

قال الوالد: إن يوقنا شديد فيما يؤمن به، ولذلك تحول من الدفاع عن الباطل بكل قوة إلى الدفاع عن الحق بقوة أكبر وعزيمة أشد.

قال مصطفى: أرجوا ذلك.

قال الوالد: غداً يا مصطفى تقص علينا المزيد من قصص يوقنا لتعلم عنه المزيد بإذن الله.

قال مصطفى: غداً بإذن الله سأقص عليك، الصراع بينه وبين سيف الله المسلول وأمين الأمة وحصار قلعة يوقنا.

يوقنا .. كر وفر

أقبل أبو عبيدة على المسلمين وطلب المشورة منهم، فقال له رجل يُدعى يونس بن عمرو الغساني، وكان خبيراً بالشام وجباله وأرضه: "أصلح الله الأمير ... انظر إلى ما أعرف من البلد وما عندي من الرأي .. فقد فتح الله على يدك الشام وسهله وجبله وقتل طاغية الكفر وحاميته .. وأما بقايا عساكرهم فهي من وراء الدروب وهي جبال وعرة .. والقوم ليس لهم قلوب يقاتلون بها المسلمين .. فحاصر هذه القلعة وبث الخيل وشن الغارات في بقايا البلاد .. فما لهم زاد يقوم بهم".

تبسم خالد بن الوليد من كلامه، وقال: "هذا والله هو الرأي .. وأنا أشير عليكم بمشورة أخرى .. أن نزحف نحو القلعة فلعل الله أن يفتحها في وقتنا هذا .. فإني أخشى إن طال بنا المقام أن تعطف علينا جيوش الروم من جهة أخرى فيحولوا بينها وبيننا".

قال الوالد: وأنت يا مصطفى ما رأيك لو كنت هناك واستشارك أبو عبيدة رضي الله عنه؟

قال مصطفى: يبدوا أن سيف الله المسلول لم يتوقع ما أعده يوقنا في تلك القلعة من زاد يكفيه أعواماً عديدة، ومن تجهيزات وأسلحة تكفي جيوشاً كثيرة، ولم يعلم بعد عن مكر يوقنا ودهائه وحيله الذكية.

سأل الوالد: وهل وافق أبو عبيدة على رأي خالد؟

قال مصطفى: نعم لقد وافق أبو عبيدة، وأمر بالزحف إلى القلعة، وترجل الجميع عن خيولهم، واختلط الفرسان مع الجنود، وبدأ أول لقاء بين أبي عبيدة وخالد بن الوليد وبين يوقنا، وطلبوا القلعة، فلما دنوا منها أمطرهم جنود يوقنا بالحجارة من كل مكان، ورموهم بالمجانيق، فاضطر جيش المسلمين إلى التراجع، ودفع بعضهم بعضاً، وشدخت الحجارة منهم بعضهم وقتلت بعضهم، واضطر أبو عبيدة إلى نصب رايته خارج المدينة.

عقب ذلك اجتمع أبو عبيدة بالمسلمين وقال: أيها الناس .. إنكم قاتلتم اليوم على غرة .. فادفنوا الشهداء وشدوا كل من أصابه جرح.

فرح يوقنا بهزيمة المسلمين، وقال لأصحابه: إن العرب لا تدنوا من القلعة بعد هذا اليوم .. وإن حاصرونا فلأكيدنهم ولأهبطن إلى عسكرهم.

ثم انتخب يوقنا ألفين من خيار بطارقته وأبطاله وأمرهم أن ينزلوا مسرعين وأن يميلوا على طرف عسكر المسلمين إذا خمدت نيرانهم، وأمّر عليهم وزيره، فنزلوا ليلاً من القلعة وداروا حول معسكر المسلمين إلى أن أتوا إلى مكان به بعض البادية من أهل اليمن، فغاروا عليهم فقتلوا منهم وأخذوا طعامهم وزادهم.

يحكي عبد الله بن صفوان عن تلك الليلة، فيقول: كنا تلك الليلة غادين من عدونا .. آمنين لكثرتنا .. وقد غفل حرسنا .. فلم نشعر إلا وجماعة الروم قد هجموا علينا وهم ينادون بلغتهم وقد أعلنوا التبهرج بزينتهم، ووضعوا السيف فينا، فمنا من استوى على جواده وطلب النجاة وهو لا

يعلم من أين هي، ووقعت الجندلة في أبطال المسلمين وعساكرهم، والقوم ينادون: "النفير النفير دهينا ورب الكعبة"، وهم يسرعون إلى خيمة أبي عبيدة وينادون: "أيها الأمير كبسنا يوقنا"، فركب الأمير في بعض الرجال وجعل يدور حول العسكر .. فنظر صاحب الروم إلى العرب وقد لحقته .. فصاح بأصحابه من كان أخذ شيئاً فليتركه ويطلب النجاة، وأخذوا من رجالنا نحو خمسين رجلاً من أخلاط الناس ومضوا يجمع بعضهم بعضاً ويطلبون القلعة .. فلما نظر خالد إلى ذلك حمل في أصحابه واقتطع من الروم زهاء من مائة رجل ووضع فيهم السيف فقتلهم عن آخرهم .. فلما وصل أصحاب يوقنا إلى القلعة فتح لهم وأدخلهم، ولما أضاء الفجر وطلعت الشمس دعا يوقنا بالمسلمين الخمسين رجلاً وهم موثقون بالحبال فقربهم إلى موضع ينظرهم المسلمون ويسمعون أصواتهم وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ... حتى قتلوا عن آخرهم.

قال الوالد: إذن كانت تلك الغارة سيجال بين المسلمين وبين يوقنا ... قتل يوقنا بعضاً من المسلمين ثم أسر خمسين رجلاً منهم .. وقتل سيف الله خالد بن الوليد من جنود يوقنا مائة.

قال مصطفى: نعم .. وإن كانت الغارة الأولى على القلعة كانت لصالح يوقنا .. فقد أصاب وقتل العديد من جيش المسلمين من غير أن يُصاب جنوده بالأذى .. ثم إن يوقنا كرر تلك الغارات الليلية كثيراً مستغلاً أي ثغرة للمسلمين ... وكان له جواسيس ساعدته على الإيقاع ببعضهم خارج معسكر المسلمين.

وظل يوقنا وجيشه تحت الحصار في القلعة، وقد أضرهم الحصار، وكان أهل حلب لا يرون رجلاً من أتباع يوقنا إلا سلموه للمسلمين، وكان يوقنا له جواسيس تأتيه بالأخبار، طوال الليل والنهار، وكان أفضل جواسيسه من متنصرة العرب لأنهم يتكلمون بلغته ولغة العرب معاً، وبينما هو في قلعته، إذ بجاسوس قد أقبل، فأخبره أن بعض العرب خرجوا ومعهم جمالهم وبغالهم إلى "وادي بطنان" بعدما صالحوا أهله، يريدون طلب الميرة، وهم قليلون، فلما سمع يوقنا ذلك اختار ألفاً من أصحابه، وقال لهم: "أصلحوا شأنكم .. فوحق المسيح لأضيقن على العرب مسالكهم ولأقطعن عليهم طرقاتهم".

انتظر يوقنا حتى غطي ظلام الليل الطرقات، وفتح لهم الأبواب، وسار الجاسوس أمامهم، فبينما هم كذلك، إذ هم براعٍ معه عدد من البقر يريد بها بلده، فأسرعوا نحوه وسألوه عن العرب، فأخبرهم أنه رأى نحو مائة رجل من العرب على خيولهم ومعهم جمال وبغال متجهون إلى الذين هم في صلحهم من أهل الوادي، وأشار لهم إلى الشرق، فسار أتباع يوقنا تجاه الشرق، حتى إذا قرب الصبح أشرفوا على خيل المسلمين، وكان الأمير عليها يُقال له "مناوش"، فلما نظر مناوش إلى خيل الروم قد أقبلت قال لأصحابه: "يا بني العرب هذا بطريق من بطارقة الروم أقبل إلينا .. فدونكم إياه والجهاد والصبر على الشدة تنالوا الجنة"، ثم حمل هو وأصحابه وحملت عليهم الروم، فثبت المسلمون واقتتلوا قتالاً شديداً وقُتل مناوش وقُتل معه من المسلمين ثلاثون رجلاً، وملكت الروم ما كان مع المسلمين من الإبل والبغال، وعاد المسلمون منهزمين، ثم أمر البطريق أصحابه أن يقلوا بالأحمال

عن الدواب ويعقروها ويسوقوا بقية الدواب بما عليها، ثم اتجهوا إلى الجبل واختفوا عن أعين المسلمين، خوفاً من هجوم جيش المسلمين عليهم، وأقاموا بقية يومهم يرقبون الليل ليرجعوا إلى القلعة، وكمنوا في الجبل حتى أظلمت السماء.

يقص عوف الطائي ما حدث في هذا اليوم، يقول: كنت في الخيل لما قُتل مناوش ونحن في قلة وقد دهمتنا الخيل، فلما نظرنا إلى كثرة الروم وشدة بأسهم مع قلتنا أخذنا على أنفسنا وأتينا المسلمين، فبادر إلينا أبو عبيدة وقال: ما وراءكم؟ قلنا الحرب والطعان قتل مناوش وقتل معه خلق كثير من فرساننا، وأُخذ ما كان معنا من الزاد والدواب، فقال أبو عبيدة: وما الذي دهاكم وقد حاصر الله الروم .. ما يجسر أحد أن يخرج منهم؟ قالوا: لا علم لنا غير أنا رأينا بطريقاً عظيماً قد أشرف علينا في خيل كثيرة لا نعلم عددهم ولا من أين أتى مددهم، فهجموا علينا ونحن سائرون، فأُصيب أميرنا وقتل رجالنا وأخذوا ما كان معنا من الدواب والزاد.

لما علم أبو عبيدة ما حدث، تحدث إلى خالد بن الوليد، وطلب منه أن يسير على بركة الله تعالى ويأخذ معه ما يشاء من الفرسان كي يقفوا أثر الأعداء وينتقموا منهم، فأسرع خالد إلى خيمته ولبس سلاحه واستوى على جواده وهمّ بالمسير وحده، فتعجب أبو عبيدة لمَ يذهب وحده والعدو في عدد كثير! فقال خالد: "أنا أمضي وحدي وما أريد أحداً، ولو كانوا في ألف أو ألفين ألقاهم بمعونة الله تعالى"، فأثنى عليه

أبو عبيدة وطلب منه أن يأخذ معه بعض الفرسان الشجعان، مثل ضرار بن الأزور.

سار خالد وأصحابه حتى أتى إلى موضع الوقعة، حيث القتلى مطروحين وحولهم أهل الوادي يبكون خوفاً على أنفسهم من انتقام المسلمين، فلما رأوا خالد وأصحابه بادروهم بالصراخ وألقوا بأنفسهم بين أيديهم، فسألهم خالد عن هؤلاء الذين قتلوا المسلمين، فقالوا: "نحن بريئون من دماء أصحابكم ونحن في صلحكم"، فاستحلفهم خالد أن يقولوا أي شئ يعلمونه، فأخبروه بأن الذي قتل المسلمين هو بطريق أرسله يوقنا من القلعة ومعه ألف فارس، وأخبروه أن لهم عيوناً في جيش المسلمين، ثم دلوه على الطريق الذي سار منه البطريق، فقال خالد لأصحابه: "إن القوم علموا أنهم لا بد لهم من خيل تطلبهم .. وقد عدلوا عن طريقنا .. حتى إذا هجم عليهم الليل رجعوا إلى قلعتهم .. فعولوا على المسير في طلبهم".

ثم أخذ خالد معه رجالاً من المعاهدين كي يقفوا أثر الطريق، وسأل أحدهم إذا كان هناك طريق إلى القلعة غير هذا الطريق، فأخبره أن هناك طريقاً آخر، ونصحه بالتزام هذا الطريق كي يدركهم، فنزل خالد ومن معه في الوادي وهم يرقبون الطريق، فما مضى من الليل إلا قليل إذ سمعوا وقع حوافر الخيل والبطريق يحفزهم على المسير، فلما توسطوهم صاح خالد صيحة شديدة ووثب هو وأصحابه كالأسود عليهم، وقصد خالد البطريق وهو يظن أنه يوقنا، فضربه ضربة ففلقه نصفين، وقتلوا منهم نحو سبعمائة، وأسروا نحو ثلاثمائة، لم ينج من

أعداء الله إلا القليل، وحازوا جميع ما معهم وأتوا برأس البطريق إلى أبي عبيدة، فوجدوه متلهفاً على قدومهم، فلما أقبل خالد وأصحابه ومعهم الأسرى والأسلاب والدواب هللوا وكبروا، فأجابهم العسكر بالتهليل والتكبير، وعرض أبو عبيدة الإسلام على الأسرى فأبوا، فضرب أعناقهم أمام القلعة انتقاماً لمن قتلهم يوقنا من المسلمين في القلعة أمامهم.

قال الوالد: لقد أسعدتني يا مصطفى بسردك للقصة بالرغم أنني أعرفها .. ولكن لدي سؤال.

مصطفى: تفضل يا أبي.

الوالد: هل تظن أن خالد بن الوليد سيف الله المسلول انتصر في هذه الوقعة على يوقنا؟

مصطفى: لقد انتصر بالفعل سيف الله المسلول لأنه حقق هدفه بالقضاء على تلك الكتيبة التي خرجت لقتل المسلمين، ولكن يوقنا انتصر أيضاً في البداية لأن كتيبته نجحت في قتل تلك القافلة من المسلمين الذي ساروا إلى الوادي من أجل الزاد، غير أن نصر ابن الوليد كان أعظم ... لقد قتل كتيبة كاملة من ألف فارس، هم من أفضل فرسان يوقنا ... ويبدوا أن يوقنا كلما ضرب ضربة ردها له خالد بمثلها أو أقوى منها، غير أن ذلك لا يمنع أن يوقنا استطاع النيل بشكل أو بآخر من المسلمين وما زال في مأمن في قلعته .. لكن إلى متى يستطيع يوقنا الاستمرار على ذلك وهو محاصر في تلك القلعة؟

قال الوالد: عليك القراءة بنفسك ثم نتناقش سوياً .. ويبدوا أنك أصبحت أكثر ادراكاً لذكاء يوقنا وشجاعته وتمسكه بمبادئه.

قال مصطفى: أعتقد ذلك .. والأحداث القادمة ستؤكد ذلك أو تنفيه .. وبإذن الله يا أبي سأقرأ المزيد ثم أقص عليك.

في اليوم التالي جلس مصطفى مع والده وقال له: هناك بطل جديد يا أبي قرأت عنه لأول مرة وهو يُدعى أبو الهول .. فدعني أقص عليك قصته الرائعة ... ولكن قبل ذلك سأقص عليك كيف حاصر المسلمون قلعة يوقنا شهوراً طويلة وكيف كانت المراسلات بين أبي عبيدة وبين الخليفة الفاروق رضي الله عنهما ... فكن بي صبوراً.

قال الوالد: كل آذان صاغية يا بُني.

يوقنا تحت الحصار

جلس كبار الصحابة يتشاورن في كيفية مواجهة الداهية الرومي يوقنا، فقال سيف الله خالد: "إنا كنا نظن أنا محاصرون القوم .. وإذا نحن بخلاف ذلك .. فهم يرقبون غفلتنا وينتظرون غرتنا وقد قتلوا جمالنا والدواب .. والصواب أن نجعل عليهم حرساً في كل طريق ولا نُمكنهم أن يخرجوا من قلعتهم .. ونضيق عليهم ما استطعنا".

قال أبو عبيدة: جزاك الله خيراً يا أبا سليمان .. ما أبصرك بالأمور.

في اليوم التالي صلى أبو عبيدة بالناس صلاة الفجر، ثم طلب عبد الرحمن بن أبي بكر وضرار بن الأزور وعدداً من أبطال المسلمين، ففرقهم حول القلعة ومعهم من اختاروا، وأمرهم أن يراقبوا الطرق حتى لو طار طائر منها أو إليها اقتنصوه، وأقاموا على ذلك مدة طويلة، فلما طال عليهم ذلك ضجر أبو عبيدة وأمرهم بالرحيل، وعزم أن يبتعد عن القلعة لعله أن يجد منهم غفلة فينتهزها، ونزل بقرية يُقال لها "النيرب" بالقرب من القلعة، وخلال تلك المدة لم يخرج جنود يوقنا من القلعة ولم تُفتح أبوابها.

فتح الله على أبي عبيدة وعلم بوجود جواسيس بين جنوده ينقلون إلى يوقنا خططه، فطلب من خالد بن الوليد أن يتحرى ذلك، فقام خالد بعمل جولة في المعسكر، وأمر أصحابه أن يقبضوا على كل من أنكروه، وبينما يطوف بين الجنود، إذ نظر إلى رجل يتحقق منه، فاسترابه الرجل من نظر خالد إليه، فسأله خالد: "من أي الناس أنت يا أخا العرب"؟ وأراد الرجل أن ينتمي إلى غير قبيلته فجرى الحق على

لسانه فأخبره أنه من اليمن، من غسان، فلما سمع خالد كلامه قبض عليه، وقال له: "يا عدو الله .. أنت عين علينا لعدونا"، وأتى به إلى أبي عبيدة، وأخبره أنه قد ارتاب في أمر هذا الرجل، لأنه ما رآه قط إلا هذا اليوم، وقد ذكر أنه من غسان، فطلب أبو عبيدة من خالد أن يختبره بالقرآن والصلاة، فطلب منه خالد أن يصلي ركعتين ويجهر بالقراءة فيهما، فلم يعرف ماذا يقول، ثم أقر أنه عين على المسلمين، وأن معه جاسوسين آخرين لكنهما ذهبا إلى القلعة ليخبرا يوقنا بأخبار المسلمين، ثم رجع أبو عبيدة إلى حلب وما زالت القلعة محاصرة خمسة أشهر، وقد أوشك أبو عبيدة على فك الحصار عن القلعة والانصراف عن يوقنا الذي أجهد المسلمين كثيراً بمكره ودهائه، حتى أتاه خطاب من أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كانت أخبار أبي عبيدة قد تأخرت على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فكتب إليه: "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله أبي عبيدة .. سلام عليك .. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .. واعلم يا أبا عبيدة أن بانقطاع كتابك وابطاء خبرك يكثر قلقي ويضني جسدي على إخواني المسلمين .. وما لي ليل ولا نهار إلا وقلبي عندكم ومعكم .. فإذا لم يأتِ منك خبر ولا رسول فإن عقلي طائر وفكري حائر .. وكأنّك لا تكتب إلي الا بالفتح أو الغنيمة .. واعلم يا أبا عبيدة أنني وإن غائباً عنكم فإن همتي عندكم وإني داعي لكم وقلقي عليكم كقلق الوالدة

الشفوقة على ولدها .. فإذا قرأت كتابي هذا فكن للإسلام والمسلمين عضداً .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

لما وردت الرسالة إلى أبي عبيدة وقرأها، قال لمن معه: "معاشر المسلمين إذا كان أمير المؤمنين داعياً لكم وراضياً عنكم في فعالكم .. فإن الله ينصركم على عدوكم"، ثم كتب جواب الرسالة: "بسم الله الرحمن الرحيم إلى أبي عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله بالشام أبي عبيدة .. سلام عليك .. وأني أحمد الله تعالى وأصلي على نبيه وبعد يا أمير المؤمنين .. فإن الله تعالى له الحمد قد فتح على أيدينا "قنسرين" وقد شننا الغارة على العواصم .. وقد فتح الله علينا مدينة حلب صُلحاً .. وقد عصت علينا قلعتها وبها خلق كثير مع بطريقها يوقنا .. وقد كادنا مراراً .. وذكر له ما جرى له مع أخيه يوحنا .. وأنه قتل منا رجالاً ورزقهم الله الشهادة على يديه .. ثم ذكر له من قُتل .. والله تعالى من ورائه بالمرصاد .. وقد أردنا الحيلة عليه فلم نقدر .. وأردت الرحيل عنه وعن محاصرته إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية .. وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين".

هنا توقف مصطفى عن الحديث ونظر إلى والده وقال له: يبدوا أن يوقنا هذا داهية .. حتى أن أمين الأمة يشتكي منه إلى أمير المؤمنين ومن كيده .. ويبدوا أنه قد يأس من الانتصار عليه حتى أنه فكر في الانصراف عنه وفك الحصار عن قلعته.

قال الوالد: إن يوقنا قوي وذكي للغاية ولعل الله أراد أن ينصر به المسلمين .. فادخره لهم في نهاية فتوحات الشام .. فقد كانت حلب هي

المحطة الرئيسية قبل مدينة أنطاكية والتي كان يقيم بها الملك هرقل .. ولعل يوقنا يكون له دور هام للغاية في زوال مُلك هرقل .. ولكن يا بُني ماذا كان رأي أمير المؤمنين الفاروق .. هل وافق على اقتراح أبي عبيدة رضي الله عنهما؟

قال مصطفى: حقيقة لم أعتقد أن أمير المؤمنين سيوافق على ذلك ... وإليك ما قد حدث بالفعل يا أبي ... فهل أكمل؟

قال الوالد: تفضل يا بُني.

بعث أبو عبيدة رسالته إلى أمير المؤمنين مع شخصين؛ عبد الله بن قرط وجعدة بن جبير فسارا بجدية وفي الطريق قابلا فارساً، فلما نظر إليهما قصدهما وكأنّه يريد قتالهما، فقالا أحدهما للآخر: "أما ترى هذا الفارس وقد عارضنا في مثل هذا المكان"؟ فقال له الآخر: "وما عسى أن نتخوف من فرسان العرب وليس في هذا الموضع من رفع عموداً أو ضرب وتداً إلا وأصبح معنا ودخل تحت طاعتنا وفي شريعتنا"؟ فلما أقترب الفارس سلم عليهما وسألهما عن مقصدهما، فأخبراه أنهما رسولان من الأمير أبي عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فأخبرهما أنه يُدعى هلال بن بدر الطائي، وأنه خرج في جماعة من قومه يريدون الشام للجهاد بعدما ورد عليهم كتاب من أمير المؤمنين عمر، وأن أصحابه من ورائه مقبلون، ثم سلم عليهما وولى، فسارا وبعد قليل إذ بالخيل قد أشرفت والإبل قد أقبلت تتبع هلال، وسار عبد الله وجعدة حتى وصلا المدينة ودخلا المسجد وسلما

كتاب أبي عبيدة إلى عمر بن الخطاب، فلما قرأه استبشر ورفع كفيه إلى السماء ودعى بهذا الدعاء:

"اللهم اكفِ الناس شر كل ذي شر"

قاطع الوالد مصطفى قائلاً: لقد وجد أمير المؤمنين الحل الأول وهو أعظم حل ..

سأل مصطفى: وما هو؟

قال: الدعاء بإخلاص ويقين .. كما أنه لم يدع على يوقنا بالهلاك بل كان دعاءه ذكياً كما كانت روحه زكية .. لقد دعى دعوة عامة بأن يكف الله تعالى عنهم الشر من كل ذي شر .. كم هو رائع الفاروق حتى في الشدة والبأس لا يدعوا بالشر على أحد.

قال مصطفى: صدقت يا أبي .. ولعل هذه الدعوة كانت سبباً في إسلام يوقنا .. ولكن الفاروق لم يكتفِ بالدعاء فقط، فقد أمر بالنداء في الناس، فلما اجتمعوا قرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فقدم عليه رجال من حضرموت وأقاصي اليمن يسألونه أن ينفذهم إلى الشام، وكان عددهم ما يقرب من أربعمائة فارس وثلاثمائة مطية ومعهم ما يقرب من مائة وأربعين رجل بدون ركاب، فدعا عمر بعبد الله ابنه رضي الله عنه، وطلب له أن يحضر من مال الصدقات بسبعين راحلة ليتعاقبوا عليها ويحملوا عليها زادهم وميرتهم، فأسرع عبد الله وأتى بسبعين بعيراً وسلمها إليهم، ثم قال لهم الفاروق: "جدوا رحمكم الله إلى إخوانكم المسلمين وأسرعوا إلى حرب عدوكم".

قاطع الوالد مصطفى قائلاً: ولكن أمير المؤمنين .. لم يقل بعد كلمته في رسالة أبي عبيدة .. هل وافقه أم لا؟

قال مصطفى: يا والدي .. ألم تكن قد قرأت تلك القصة؟

قال: بلى ولكني نسيت الكثير منها .. وإني متشوق لأعرف رأي الفاروق .. هل سينزل على رأي أبي عبيدة ويفك الحصار عن يوقنا؟ وإن كنت أظن أنه لن يقبل بفك الحصار لأن الفاروق لا يستسلم لأعداء الله.

قال: نعم يا أبي .. وقد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: "وأشدهم في دين الله عمر"، لقد كتب الفاروق تلك الرسالة إلى أبي عبيدة: ".. أما بعد فقد ورد علي كتابك مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح والنصر على أعدائكم ومن قتل من الشهداء .. وأما ما ذكرته من انصرافك إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية وتترك القلعة ومن فيها فهذا رأي غير صواب .. تترك رجلاً قد دنوت من دياره وملكت مدينته ثم ترحل فيبلغ إلى جميع النواحي أنك لم تقدر عليه ولم تصل إليه .. فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع من يطمع ويجترىء عليك أجناد الروم خاصتهم وعامتهم وترجع إليه الجواسيس وتكاتب ملوكها في أمرك ... فإياك أن تبرح عن مجاهدته حتى يقتله الله أو يُسلم إليك إن شاء الله تعالى أو يحكم الله وهو خير الحاكمين ... وبث الخيل في السهل والوعر والضيق والسعة وأكناف الجبال والأودية وشن الغارات في حدود المفازات ... ومن صالحكم منهم فاقبل صُلحه ومن سالمك فسالمه ... والله خليفتي عليك وعلى المسلمين .. وقد أنفذت كتابي إليك

ومعه عصبة من حضرموت وغيرهم وأهل مشايخ اليمن ممن وهب نفسه لله تعالى ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال فرسان ورجال .. والمدد يأتيك متواتراً إن شاء الله تعالى والسلام".

استلم كل من عبد الله بن قرط وجعدة رسالة الفاروق، وسارا ومعهما الفرسان والمجاهدون من اليمن يجدون في السير، وكانوا في الطريق يسألون عبد الله وصاحبه عن فتح البلاد وقتال الروم ثم سألوهما عن مستقر العسكر، فأخبرهم عبد الله أن المسلمين وأميرهم يحاصرون قلعة حلب وفيها عظيم من عظماء الروم وبطاريقه وجنوده، ثم قالوا له: لمَ لا يصالحون كما فعل أصحابهم؟

فأجابهم عبد الله: يا معاشر العرب .. إنا لم نرَ بعد وقعة اليرموك رجالاً أشجع من هذا ... فلقد قتل رجالاً وجندل أبطالاً .. إنه ليغير على أطراف العسكر في وقت صلاتهم فيقتل رجالهم وينهب أموالهم ثم يرجع إلى قلعته ... ثم يستتر في سواد الليل في طلب العلافة .. فيأمر بهم ويأخذ دوابهم وزادهم وميرتهم ثم يعود إلى قلعته ونحن لا نعلم به .. وإن المسلمين له محاصرون ومنه خائفون حذرون.

كان فيمن سمع كلام عبد الله عن يوقنا مولى (عبد) من موالي بني طريف يُقال له "دامس" وكنيته "أبو الأهوال"، وهو رجل لديه بشرة شديدة السواد، طويل كأنه النخلة؛ إذا ركب الفرس العالي لمست قدماه الأرض، وإن ركب البعير تقارب ركبتاه رجلي البعير، وكان أبو الهول فارساً شجاعاً قوياً قد شاع ذكره وعلا قدره في بلاده، وكان

الفرسان العتاة لا يدركونه، وإذا أدركوه تعجبوا من شجاعته وبراعته، فلما سمع أبو الهول ما فعل يوقنا بالمسلمين كاد أن يتمزق غيظاً.

ثم قال أبو الهول: أبشر يا أخا العرب .. فوالله لأجتهدن في أن يخذله الله على يدي.

فلما سمع عبد الله كلامه غضب، وقال له: يا ابن السوداء .. لقد حدثتك نفسك آمالاً لا تبلغها وأشياءً لا تدركها .. ويلك ألم تعلم أن فرسان المسلمين وأبطال الموحدين بأجمعهم له محاصرون ولأصحابه محاربون .. ومع ذلك لا يقدر أحد له على شر.

فغضب أبو الهول من كلام عبد الله وقال له: والله يا عبد الله لولا ما يلزمني لك من أخوة الإسلام لبدأت بك قبله .. فاحذر أن تزدري بالرجال .. وإن أحببت أن تعرفني فسل عني من حضر من أهلي وما تقدم من فعلي .. والذي من ذكره تطيش العقول وتضيق الصدور .. فكم من عساكر قتلتها وجموع فرقتها ومحافل بددتها وغارات شننتها .. ولا يُضام لي جار ولا يلحقني عار وبحمد الله أنا فارس كرار غير فرار.

ثم تركهم أبو الهول مغضباً وسار أمامهم، فقال بعض العرب من قومه إلى عبد الله: يا أخا العرب ارفق بنفسك .. فإنك وأيم الله تخاطب رجلاً يقرب إليه البعيد ويهون عليه الصعب الشديد .. إنه لجليد فريد لا تهوله الرجال ولا تفزعه الأبطال .. إن كان في حرب كان في أولها لا يدركه من طلب ولا يفوته من هرب.

فأجابهم عبد الله: لقد كثر وصفكم .. وأرجوا أن يجعل الله فيه خيراً وفرجاً للمسلمين.

وهنا صمت مصطفى واكتفى بما قصه اليوم، فقال الوالد: والله لقد شوقتني لسماع بطولات أبي الهول يا مصطفى .. ولقد قرأت قصة يوقنا ولكني لا أذكر شيئاً عن أبي الهول .. وأعتقد كما قال عبد الله بن قرط أن الله تعالى قد يجعل نصره على يد عبد من عباده لا يعرفه أحد.

قال مصطفى: يا والدي .. لقد تأخرت ويجب أن أنام لاستعد للدراسة في البكور، وبإذن الله في الغد سأقص عليك قصة أبي الهول كاملة.

يوقنا في مواجهة أبي الهول

أخذ القوم في جد السير حتى قدموا مدينة حلب، وأبو عبيدة يحاصر القلعة وقد أحاط المسلمون بها من كل جانب، ويوقنا ما زال في كل ليلة ينشط إليهم برجاله ولكنه لا يقاتلهم إلا قليلاً ثم يعود إلى قلعته، ولا يظهر نهاراً أبداً. فلما أقبل القوم على أبي عبيدة جردوا سيوفهم وأشهروا سلاحهم ونشروا راياتهم وكبروا بأجمعهم وصلو على نبيهم، فأجابهم جيش أبي عبيدة بالتكبير والتهليل، واستقبلهم أبو عبيدة وسلم عليهم ونزل كل قوم عند بني عمهم.

في تلك الليلة نظر أبو الهول ومن معه من الفرسان القادمين من طريف وكندة وحضرموت إلى شدة الحرس وحذرهم، فتعجبوا وقال لهم أبو الهول: العدو في القلعة وأنتم أمام العدو ولا عسكر بازائكم تخافونه .. فما هذا الخوف؟

قالوا: يا أبا الهول إن صاحب هذه القلعة يرتقب غفلتنا ويغير على أطرافنا ويأتينا من أمننا.

وبينما يتحدثون إذ بضجة قد وقعت في طرف عسكر المسلمين، فأسرع أبو الهول إلى الناحية التي سمع منها الضجة، فإذا بيوقنا في خمسمائة فارس وقد وجد ثغرة في عسكر المسلمين، فلما نظر أبو الهول إلى الروم أنشد يُحمس نفسه ويُرهب أعدائه قائلاً:

أنا أبو الهول واسمي دامس ... أكر في جمعهم مداعس

ليث هزبر بطل ممارس ... مدمر كل عدو ناكـــــس

ثم جعل أبو الهول يضرب فيهم بسيفه ومعه طائفة من قبيلته، فقتلوا من رجال يوقنا مائتين، فلما نظر يوقنا ما نزل به تقهقر إلى قلعته.

هنا توقف مصطفى عن الحديث معلقاً: إن إعجابي يزداد بهذا القائد يوقنا مثلك يا أبي، فهو يعلم جيداً متى وكيف يهاجم ومتى ينسحب، إنه شجاع ولكنه ليس متهوراً، يعرف كيف يحفاظ على جنوده، وبالرغم أنه في أول لقاء له بأبي الهول قد انسحب، لكنه أصاب بعض المسلمين أيضاً.

قال الوالد: صدقت يا بُني .. وإن هذا الموقف ليذكرني بسيف الله المسلول خالد حينما انسحب بجيش المسلمين في أحد الغزوات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لهم الناس: يا فرار، فرد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم مؤيداً ما فعله خالد: "بل هم الكرار إن شاء الله"، فالقائد الفطن هو من يحسن الانسحاب كما يحسن الهجوم .. ولكن يا مصطفى ماذا فعل أبو الهول بعد ذلك؟

قال: لقد حاول أبو الهول وأصحابه اتباع يوقنا إلى القلعة، فصاح أبو عبيدة: "عزيمة مني عليكم أن لا يتبعهم منكم أحد في ظلمة هذا الليل"، فقال أصحاب أبي الهول له: "إن الأمير يعزم علينا وعليك بالرجوع .. فارجع رحمك الله"، فرجع ومعه أصحابه إلى رحالهم بعدما قاتلوا بشجاعة وإخلاص، ولما أصبح الناس اجتمعوا للصلاة مع أبي عبيدة، ثم تفرقوا بعد الصلاة ولم يبق إلا بعض أمراء المسلمين ظلوا يتحدثون عن ليلتهم.

فقال خالد: أصلح الله الأمير .. لقد رأيت "كندة" وقد أبليت بلاءً حسناً وقد تقدمت رجالها وثبتت أبطالها وما زالت تضرب حتى أزالت عنا حامية الكفر والعدو.

فقال أبو عبيدة: صدقت والله يا أبا سليمان .. والله لقد أسعدت الناس كندة بثباتها .. والله لقد سمعت يقولون أحسن دامس وأجاد أبو الهول.

فقام رجل من مشايخ كندة إلى أبي عبيدة يُقال له سراقة بن مرداس فقال: أصلح الله الأمير .. إن دامس هو أبو الهول وهو مولى طريف، وهو رجل يهول على الأبطال ويفضح الشجعان .. لا يهوله جمع ولا يصعب عليه غارة.

فقال أبو عبيدة لخالد: أما تسمع كلام سراقة في عبدهم دامس؟

فقال خالد: "يوشك أن يكون صادقاً في قوله .. لقد سمعت بذكره وحديثه وشجاعته وبراعته .. ولقد أخبرني رجل يُقال له النعمان بن عشيرة أن دامساً هذا أغار وحده وهم على ساحل البحر في سبعين رجلاً من أهل مهرة .. وكان دامس يطلبهم لأجل ثأر كان له عندهم .. وكانوا يخافون منه ومن شره .. فكانوا يفتدون بأموالهم ودوابهم ويهربون إلى أطراف الجبال وسواحل البحر حذراً منه .. وكان مع ذلك يسأل عن أخبارهم ويطلع على آثارهم .. فلما أصبح عند نزولهم على ساحل البحر استصرخ قومه للغزو فتشاغلوا ولم ينفر منهم أحد معه ... وكان خبيراً بالبلاد سهلها ووعرها برها وبحرها .. فلما أيس من قومه دخل إلى خبايته واحتمل رزمة على عاتقه .. فأتاه أناس من قومه وقالوا له: إلى أين تريد؟ وما هذا الذي معك؟ فقال: أريد الغارة

على بني الشعر وآخذ بالثأر واكشف العار .. فقال له مشايخ الحي: ما رأينا أعجب من أمرك وأنت تعلم أن بني الشعر سبعون فمن يريد أن يغير عليهم وحده ويأخذ منهم بالثأر! .. ما سمعنا بهذا أبداً .. وإنا نرى أن تقصد جواد .. وكانت جواد هذه أمة لبني حياس وكانت بقرية من قرى حضرموت .. وكان دامس هذا يهواها وكل ما يأخذه من الأموال والخيل والإبل يدفعه إليها .. لا يعظم عليه كثرته .. ولا يرضى لها بالقليل ولا يشبع لها بالكثير ... فظن القوم أنه مضى إليها .. فقال لهم: وأيم الله إني بطل ... وسوف تعلمون أن ما أفعله الحق واليقين .. فرجع قومه وتركوه .. وسار إلى أن أتى إلى مرعى قومه فأخذ راحلته من إبلهم وأخذ سيفه وسار بقية يومه وليلته .. حتى إذا كان آخر الليل عطف بالراحلة إلى بعض الأودية فأبركها وحل رحلها وعقلها ودورها ترعى معقولة .. ثم كمن بين حجرين وكان قريباً من القوم ويخاف أن يدوروا به .. فلما مضى عليه نهاره وأقبل ليله أتى إلى راحلته وأبركها ورحلها وسار حتى أشرف على نار القوم فعدل بناقته حتى أشرف على الحي .. وكان في ذلك الشرف شجر من الطلح فأبرك ناقته وزم شدقها لئلا ترغو فيسمع القوم رغاءها .. ثم عمد إلى رزمته فحلها واستخرج منها الثياب ... وأتى إلى تلك الشجرة فجعل على كل عود منها مثل عمامة الرجل ويأتي بالعود ينصبه ويسنده بالحجارة ويطرح عليه الإزار .. ولم يزل حتى أقام أربعين عوداً على هذه الصفة .. وجعل عليه حلة حمراء أرجوانية .. وهبط من ذلك الشرف الذي عليه الثياب وقصد الحي ودار حول بيوتهم وتفكر في أمره وكيف يحتال وقد مضى أكثر الليل .. ثم صبر إلى أن طلع الفجر وسار نحو الساحل ..

فلما قرب منهم صاح فيهم وقال: دنا أجلكم أنا أبو الهول ولقد أصبحتم بالويل وأخذتم من البر والبحر .. يا لثأر طريف يا آل طريف يا آل كندة .. فلما وقع صوته في أسماعهم ذهلت رجالهم وتصارخت نساؤهم وفزع القوم بين يديه من البيوت هاربين وإلى الساحل نحو الجبل طالبين ..وهو من خلفهم .. فلما رأوه وحده شجع بعضهم بعضاً ورجعوا إليه يقاتلونه وطمعوا فيه وأخذوا في طلبه .. فجعل يكر عليهم ويرجع عنهم ويقتل رجلاً بعد رجل .. فلما نظروا إلى شدة بأسه وعظم مراسه وهول صولته وشدة حملته أرادوا أن يسبقوه إلى الشرف ليأتوا إليه من ورائه .. فلما علم أنهم قد قاربوا الأعواد التي عملها وعليها الثياب .. خاف أن ينظروا إليها ويعلموا ما فعله من المكر .. فسبقهم إلى الشرف وسار أمامهم وأقبل على الأعواد مخاطباً لها كأنه يخاطب الرجال وهو يقول: يا أهل كندة يا أهل طريف إياكم والقوم قد أتتكم الرجال فلا تحملوا عليهم وأنا أفديكم بنفسي .. فمد القوم أبصارهم إليه فوجدوا عنده الثياب على الأعواد في انشقاق الفجر .. فلم يشكو أنهم رجال .. فانقلبوا راجعين نحو البحر .. وجعل دامس ينادي: ألا يا قوم .. أقسمت عليكم أن لا تبرحوا من أماكنكم وأنا أكفيكم مؤنة القوم وحدي .. فرجعت بنو مهرة ناكصين على أعقابهم (هربوا) .. هذا قد أردف زوجته وهذا أولاده وهذا أمَته وهذا أخذ ما قدر عليه من أثاثه ... ورجع أبو الهول إلى الحي فلم يصادف فيه إلا العبيد والصبيان والمشايخ والعجائز ... فأمر العبيد أن يوقروا الجمال فحملوها .. وكتفهم وساق الجميع أمامه .. وعاد وأخذ الثياب من على الأعواد .. ولحقهم وأتى بهم ديار قومه .. فعجبوا منه ومن فعاله".

لما سمع أبو عبيدة تلك القصة العجيبة من خالد، أقبل على سراقة وطلب منه أن يدع له أبا الهول، كي ينظر إليه ويسمع كلامه، فأتى به سراقة.

قال له أبو عبيدة: بلغني عنك عجائب .. وأنت وأيم الله أهلها لأنك جزل من الرجال .. وأعلم أنك وقومك تقاتلون في بلاد سهلة لا تأتون الجبال ولا القلاع .. ولقد اقتحمت البارحة أثر القوم اقتحاماً منكراً .. فارفق بنفسك واحذر من هذا البطريق يوقنا.

فقال له أبو الهول: أصلح الله الأمير .. لقد غزوت مهرة وأخذت أموالها وإن جبالها منيعة شامخة رفيعة ذات وعر وحجر .. وما هذه بأمنع من تلك الجبال.

فسأله أبو عبيدة: إني أراك نجيباً .. فهل حدثتك نفسك من أمر هذه القلعة بشيء؟

هنا توقف مصطفى عن القصص وقال لوالده: يبدوا أن أبا عبيدة رضي الله عنه بعد تلك القصة العجيبة لأبي الهول وبعد شجاعته في الليلة السابقة ومواجهة يوقنا، شعر أن الله جاعل نصره على يد هذا العبد الأسود لون البشرة .. الأبيض لون القلب .. ولكن أبو الهول أجابه إجابة جعلتني حائراً.

قال الوالد: وما ذلك؟

قال مصطفى: لقد أجابه أبو الهول برؤية رآها في منامه .. فقصها على أبي عبيدة .. فكيف يجاوب أبو الهول على سؤال هام للأمير برؤية!

قال الوالد: يا بُني إن الرؤية - بالرغم أنها لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً – فإن لها شأن عظيم في حياة الناس .. فهي تبشر بخير قادم ليكون صاحب الرؤية على علم به ويستعد له ويقبله حينما يقابله، أو تحذر من شر قادم ليتجنبه الناس وينتبهوا له، ومثل ذلك تلك الرؤية الشهيرة التي رآها ملك مصر وفسرها نبي الله يوسف عليه السلام، فقد كانت سبباً في انقاذ البلاد من مجاعة محققة .. ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لم يبق من بعدي من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة"، وقال صلى الله عليه وسلم في تفسير بشرى الحياة الدنيا في قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}، قال عنها: "الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له"، وقد ذكر الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاة الغداة (الصبح) يقول: "هل رأى أحد منكم رؤيا"؟

قال مصطفى: هل تقصد أن الرؤية هي السبب في تحرير القلعة؟

قال الوالد: هي سبب وليست كل الأسباب .. إنها تلهم صاحبها الصواب .. حينما يكون حائراً في أمره ... وعلى صاحب الرؤية إيجاد التفسير الصحيح لها .. ثم حُسن التدبير والعمل على تحقيقها .. فهي لن تتحقق وحدها .. وهذا نبي الله يوسف عليه السلام أحسن تفسير رؤية الملك .. ثم وضع خطة للتعامل مع ما بشرت به الرؤية وما حذرت منه .. ثم قام على تنفيذ الخطة باتقان.

قال: الآن فهمت ..

قال: إذن أكمل ماذا قال أبو الهول لأبي عبيدة.

قال أبو الهول: "إني لما قدمت في هذا الوقت كنت رأيت في نومي رؤيا"، فقال أبو عبيدة: "وما الذي رأيت؟ أراك الله الخير"، قال: "رأيت كأنّي سائر في وطأة من الأرض وإني مجد أطلب قومي .. فبينما أنا في مسيري إذ أشرفت عليهم وهم حائرون لا يتقدمون ولا يتأخرون .. فناديتهم: ما شأنكم وأي شيء عرض لكم في طريقكم؟ فقال القوم: ما ترى هذا الجبل كيف قد عرض لنا في آخر هذا الطريق وليس لنا فيه مسلك ولا مطلع .. فقلت: على رسلكم ألا ترون هذه الفجوة في هذا الجبل؟ فقالوا: هيهات ليس لنا فيه منقذ ولا مطلع .. فقلت: ولم ذلك؟ قالوا: فيه ثعبان عظيم لا يمر به أحد إلا وأهلكه .. وقد قتل رجالاً وجندل أبطالاً .. فقلت: يا قوم ألا تهجمون عليه بأجمعكم؟ قالوا: لا نقدر على ذلك لأن النار تخرج من أنفاسه .. وليس لنا عليه من سبيل .. فقلت لهم: فالتمسوا لكم طريقاً من وراء ظهره .. فقالوا: لا نقدر على ذلك من عظم جثته .. فتركتهم والتمست لي طريقاً فلم أجد إلا طريقاً صعباً حرجاً فاقتحمته .. فما سلكته إلا بعد المشقة .. وأتيت إلى الثعبان من ورائه فقتلته .. ثم أشرفت على قومي فاتبعوني .. فما وصلوا إلا بعد جهد جهيد وهم آمنون من عدوهم ثم استيقظت فرحاً مسروراً".

قال أبو عبيدة: "خيراً رأيت وخيراً يكون .. أما رؤياك هذه فإنها للمسلمين بشارة ولعدونا خسارة"، ثم حضر مشايخ المسلمين وأعيانهم

فقال لهم أبو عبيدة: "الله أكبر فتح الله ونصر وحبانا بالظفر وخذل من كفر .. يا معاشر المسلمين اسمعوا رؤيا أخيكم دامس فإنها عبرة لمن اعتبر وموعظة لمن افتكر"، فأقبلوا يسمعون له.

ثم قام أبو عبيدة وقال: الحمد لله وصلى الله على رسوله وسلم .. يا معاشر الناس إن الله سبحانه وتعالى له الحمد قد وعدنا في كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الغلبة على أعدائنا والظفر بمرادنا وما كان الله ليخلف وعده .. وإني نذرت إن فتح الله هذه القلعة على يدي أصنع من البر ما استطعت .. والآن قد هجس في نفسي ووقع في قلبي أنا ظافرون بهذه القلعة ومن فيها إن شاء الله تعالى ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لأنه قد دلني على ذلك رؤيا هذا الغلام.

فأقبل المسلمون على أبي عبيدة يسألون عن تأويل الرؤية، فقال أبو عبيدة: ".. أما الجبل الذي رآه عالياً شامخاً شديد الامتناع بين الشعاب والقلاع فذلك دين الاسلام بلا شك وسنة محمد صلى الله عليه وسلم .. وأما الثعبان الذي رآه وقد منع الناس وقد هجم عليه بسيفه فهو أن يفرج الله على يديه على المسلمين".

فرح الناس بتأويل أبي عبيدة وسألوه ما الذي يأمرهم به، فأمرهم أبو عبيدة بتقوى الله ثم اصلاح آلة الحرب لديهم وما يحتاجون إليه، فمضوا إلى رحالهم؛ هذا يحد سيفه وهذا يصلح آلة حربه وفرسه وهذا يتفقد درعه وهذا قوسه ونشابه، وما زالوا كذلك بقية يومهم، وفي الصباح

دعى أبو عبيدة أبا الهول، وسأله إذا كان عنده من الحيلة في أمر القلعة.

قال أبو الهول: اعلم أيها الأمير إنها قلعة منيعة شامخة حصينة .. تمنع القاصد في أهلها محاصرة ولا تضيق صدورهم من قتال .. غير أني أفكر في حيلة .. وأرجو من الله أن يتم ذلك .. فيكون تبديدهم ونملك بمشيئة الله ديارهم ونقلع آثارهم .. وأنت تعلم ما في إذاعة الأسرار من الشر والأضرار .. ومن كتم سره كانت الخيرة فيما لديه .. أرى أن تزحف بعسكرك وجملة من معك من أصحابك حتى تنزلوا بإزاء القلعة ليظهر لهم منك الحرص والهيبة .. واعلم أن في ذلك من الحيل ما أرجو من الله أن يتمها إن شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

وافق أبو عبيدة على رأي أبي الهول، وأمر عسكره بالرحيل، فارتحلوا ونزلوا تحت القلعة وهللوا وكبروا وأظهروا سلاحهم، فأشرف عليهم الروم ونظروا إلى جمعهم فهابوهم وألقى الله الرعب في قلوبهم حتى أنهم اضطربوا في قلعتهم وماجوا وجعل كبراؤهم يستشيرون فيما بينهم، فاقترح بعضهم القتال، وبعضهم المكوث، ثم اجتمع رأيهم على القتال من فوق القلعة، فقعدوا على الأبراج والبنيان، يرمون المسلمين بالحجارة والسهام، وقد أقاموا على ذلك ليلاً ونهاراً، بينما أبو الهول يعمل حيله ليصل إليهم، واستمر الحال كذلك سبعة وأربعين يوماً.

ثم أقبل أبو الهول على أبي عبيدة وقال له: أيها الأمير قد عجزت وأنا أعمل حيلاً .. وقد افتكرت في شيء وأرجوا من الله أن يكون به الظفر

والظهور على أعداء الله .. أيها الأمير أضف إلي من صناديد الرجال ثلاثين رجلاً وأمرهم بالطاعة وترك المخالفة والاعتراض علي فيما آمرهم به.

وافق أبو عبيدة وضم إلى أبي الهول ثلاثين رجلاً من الشجعان، وقال لهم: معاشر المسلمين .. قد أمرت دامساً عليكم وأمرتكم بالطاعة .. واعلموا رحمكم الله أني ما أمرته عليكم لكونه أجل منكم حسباً ونسباً ولا أعظم موكباً ولا أشد بأساً .. فلا يقل أحدكم أني قد أمرت عليكم عبداً احتقاراً بكم .. وبالله أحلف مجتهداً لولا ما يلزمني من تدبير هذا العسكر لكنت أول من ينطلق معه في جمعكم .. وأنا أرجو من الله أن يفتح على يديكم.

فأقبلوا عليه وقالوا: أصلح الله الأمير ما نشك في أعظامك لنا ومعرفتك بسابقتنا .. ولقد كان كلامك الأول أثر في نفوسنا وها نحن لك وبين يديك ولو أمرت علينا علجاً أغلف لم نخرج لك من أمر ولا رأي إذ علمنا أنك لا تريد إلا نصحاً للدين .. فالسمع والطاعة لله ثم لك ثم لمن وليته علينا من قبلك كائناً من الناس أجمعين.

فرح أبو عبيدة بكلامهم وشكرهم وبشرهم أن الله تعالى سيفتح هذه القلعة على يد هذا العبد أبي الهول لأنه دقيق الحيلة حسن البصيرة .. ونصحهم بالثقة والتوكل على الله، ثم طلب أبو الهول من أبي عبيدة أن يرحل بالجيش ويكن على مسيرة فرسخ، ويأمر العسكر بقلة الحركة وأن يختفوا ما استطاعوا، ويكن له رجال أهل ثقة يتجسسون على أخبار أبي الهول وأصحابه من غير أن يعلم بهم أحد، وأن يكونوا بغير

سلاح سوى الخناجر، فإذا عاينوا الظهور على الأعداء والظفر بهم لحقوا بأبي عبيدة وبشروه، فيلحق بهم، فعلم أبو عبيدة أنه صاحب رأي وبصيرة.

ثم أقبل أبو الهول على رفاقه وطلب منهم أن ينهضوا كي يكمنوا في الوادي قبل أن يرحل جيش أبي عبيدة لئلا تشرف الروم من أعلى حصنهم فينظروا إلى رحليهم فيعرفوا به، فلا يجدوا لهم مكمناً، وطلب منهم أن يكن مع كل رجل سيفه وحجفته وخنجره لا أكثر، ففعلوا ذلك وارتدى أبو الهول لامة حربه، وأخذ أصحابه وخرج بهم، حتى إذا فارق العسكر جعلوا يخفون آثارهم وهو سائر بهم، حتى أتى بهم كهفاً في الجبل فأمرهم بالدخول إليه وجلس على بابه، وأما جيش أبي عبيدة فإنه قد ارتحل، ورآهم جنود يوقنا يرحلون، ففرحوا بذلك فرحاً عظيماً وصاروا يصيحون عليهم من أعلى القلعة، حتى طلبوا من يوقنا أن يفتح لهم الباب كي يخرجوا ورائهم فيقتلوا أو يأسروا بعضاً منهم، فنهاهم عن ذلك.

انتظر دامس ظلام الليل، ثم طلب من أصحابه أن ينهض أحدهم إلى القلعة فيأتي بخبر منها أو يأسر منها رجلاً فيأتي به ليأخذ منه الأخبار، ولكن لم يجبه أحد من أصحابه، فقال لهم: "أنا أعلم أن ما في هذه الجماعة إلا من هو ضنين نفسه كاره للموت وأنا لكم الفداء .. فانظروا كيف تكمنون"، ثم تركهم وغاب عنهم ساعة ثم عاد ومعه علج، فطلب من أصحابه أن يسألوه، ولكنهم لم يفقهوا قوله، فخرج أبو الهول مرة ثانية ثم عاد سريعاً ومعه ثلاثة نفر، ولكن لم يكن فيهم من يفهم

العربية، فقال: "لعن الله هؤلاء ما أفظع لغتهم وأكثر طمطمتهم"، ثم أوثقهم وغاب إلى أن مضى من الليل نصفه، فقلق عليه أصحابه قلقاً شديداً، وظنوا أنه قد قُتل أو أُسر، وهموا أن يرجعوا إلى العسكر، فبينما هم في ذلك إذ دخل عليهم أبو الهول وهو يقود رجلاً من الروم، فأقبلوا إليه وقبلوه بين عينيه وأخبروه أنه قد صعب عليهم تأخره، فقال لهم: "اعلموا رحمكم الله تعالى أني لما فارقتكم .. سرت إلى قريب من سور القلعة وكمنت لهم وهم يمرون ويرطنون بلغتهم .. وأنا لا أتعرض للقوم كل ذلك .. وأنا أطلب من يتعرض للعربية ويتكلم بها .. فلم أر أحداً حتى أيست وهممت بالرجوع .. إذ سمعت هدة شديدة قد وقعت من أعلى السور فأسرعت إليها .. فإذا أنا بهذا الرجل وقد ألقى نفسه من القلعة إلى أسفل السور .. فبادرت إليه وأخذته وأتيت به إليكم فانظروا ما هو"، فدنوا إليه وخاطبوه فلم يكلمهم إلا بلغته، فقال لهم أبو الهول: ".. إني أظنه هارباً من القوم وليس فيكم من يفهم ما يقول .. أنا آتيكم بمن يتكلم بلسانه وبالعربية"، ثم أسرع من عندهم وعاد بعد قليل ومعه رجل يقوده بين يديه، وقال له: "ممن أنت تكون .. أمن الروم أم من العرب المتنصرة"؟ فأخبره أنه مع العرب المتنصرة، فعرض عليه أن يطلعهم على عورات القلعة ويطلقوا سبيله، فأخبره أن القلعة ليس لها عورات، ولو أن لها عورات فلن يدلهم عليها، فطلب منه أبو الهول أن يترجم له حديثاً مع الأسرى ويسألهم إذا كان فيهم أحد من أهل الربض، فإن بينهم صُلحاً، فلم يجد فيهم أحداً من أهل الربض إلا هذا الرجل الذي طرح نفسه من أعلى السور، وعلم منه أن يوقنا بعدما غضب على أهل الربض وانصرفت عنهم العرب، نزل فجمع

مشايخهم وأصعدهم إلى القلعة وهو في جملتهم، ثم طلب منهم من الأموال ما لا طاقة لهم به، فحاول الرجل الهرب، فألقى بنفسه من القلعة كي ينجو، ثم طلب هذا الرجل من المسلمين الأمان لنفسه، لأنه من أهل الربض، وهو في ذمة العرب، فأخبره أبو الهول أنه لا خوف عليه.

أراد أبو الهول أن يرى أهل الربض ما يفعله المسلمون بأعدائهم وحلفائهم، فأخرج الروم والمتنصرة وضرب رقابهم بينما أطلق سراح الربض، ثم أخرج أبو الهول من متاعه جلد ماعز وألقاه على ظهره وأخرج كعكاً يابساً، وقال لأصحابه: "بسم الله استعينوا بالله وتوكلوا عليه وأخفوا نفوسكم وقدموا الحزم في أموركم .. فإني معول على فتح هذه القلعة إن شاء الله تعالى"، فقالوا: "سر على بركة الله تعالى"، ثم قاموا مسرعين، وبعث أبو الهول رجلين من أصحابه يعلمان أبا عبيدة بشأنهم وأن يرسل لهم الخيل فجراً، وانطلق الرجلان إلى أبي عبيدة بينما تحرك أبو الهول إلى القلعة، وهو يمشي على أربعة والجلد على ظهره، كلما أحس بشيء قرض في الكعك كأنه كلب يقرض عظماً، وأصحابه من ورائه يقفون أثره وهم يستترون بين الأحجار، فلا زالوا كذلك حتى لاصقوا الجدار، وسمعوا أصوات الحرس من أعلى القلعة، فلم يزل أبو الهول يدور حول السور حتى أتى مكاناً لم يسمع فيه صوتاً، ويبدوا أن حراسه قد ناموا.

فقال أبو الهول لأصحابه: أنتم ترون هذه القلعة وعلوها وتحصينها وليس فيها حيلة لشدة الحرس ويقظة القوم .. فما الذي ترون من الرأي أن نصنع بها وكيف الحيلة في الصعود إليها؟

قال أصحابه: إن الأمير أمّرك علينا وأنت أدرى منا وأجرأ جناناً ونحن لك بين يديك .. فمهما رأيت فيه الصلاح للمسلمين فلا نتأخر عنه .. ووالله إن قتل نفوسنا وذهاب أرواحنا أسهل علينا من الرجوع بغير فائدة ... فمنك الأمر ومنا السمع والطاعة .. وليس منا من يتأخر عنك .. ولا نموت إلا تحت ظلال السيوف وفي طاعة الله ونصرة دين الإسلام.

فشكرهم أبو الهول ودعى الله تعالى بالنصر والتوفيق، ثم سألهم إذا كان فيهم من يستطيع صعود القلعة، فأنكر الجميع ذلك، فالقلعة عالية الأسوار، ولا يمكن الوصول إلى أعلاها بغير سلم، فاختار أبو الهول من أصحابه سبعة أقوياء كالأسود، ثم جلس على قرافيصه مستنداً على جدار القلعة، وطلب من أحد السبعة أن يجلس على منكبه ثم يسند على الجدار كما هو فاعل، ففعل الرجل ما أمر به، وأمر الثاني أن يفعل ويصعد على منكبي الأول ويرمي بقوته على الجدار، ولم يزل يصعد واحد بعد الآخر إلى أن صعدوا جميعاً وهم متمسكون بالجدار، ثم أمر الأعلى أن يقم ويطرح نفسه على الجدار، فقام الأول ثم الثاني وهكذا، وكل واحد منهم يطرح نفسه على الجدار، ثم قام أبو الهول آخرهم، فإذا بالأعلى قد وصل إلى شرافة السور وتعلق بها، فاستوى على السور، ونظر إلى الحارس فوجده نائماً ثملاً من الخمر، فرماه من أعلى

السور، ثم وجد اثنين آخرين من الحراس سكارى، فذبحهم بخنجره وألقى بهم، فقام أصحابه باخفاء أبدانهم، ثم أرخى حبلاً لصاحبه الثاني فرفعه إليه، وظلوا يرفعون بعضهم البعض إلى أن صعدوا جميعاً أعلى السور، وكان آخر من صعد أبو الهول.

هنا توقف مصطفى عن الكلام وسأل والده: هناك أمر يحيرني .. لماذا رفض أصحاب أبي الهول طاعته في البداية حينما عرض عليهم الاتيان بأحد أتباع يوقنا لاستخباره .. ثم أطاعوه بعدها في الصعود إلى السور وهو أشد خطراً؟

قال الوالد: هذا سؤال رائع يا مصطفى .. لكنه يحتاج إلى تصحيح .. لأن أبا الهول لم يأمرهم .. بل عرض عليهم أن يتطوع أحدهم بذلك، ويبدوا أن الأمر كان صعباً عليهم؛ لأنه يتطلب حيلة ومكراً، ولما علم أبو الهول أنه لا أحد يستطيع منهم ذلك، قرر القيام بذلك بنفسه، وما فعله أبو الهول أثار فيهم الشجاعة والاقدام، فالقائد هو القدوة لأتباعه، إذا أرادهم أن يطيعوا أوامره، فعليه البدء بنفسه، وهذا يذكرني بصلح الحديبية بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش.

قال مصطفى: وماذا حدث في صلح الحديبية؟ وما علاقته بذلك الموقف؟

قال الوالد: لقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الحج، فلما قدموا مكة عارضهم أهلها .. فتم عقد الصلح بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم على ألا يحج هذا العام ويعود في العام المقبل، فطلب النبي من أصحابه أن يحلقوا شعورهم ويذبحوا هديهم، فلم يتحرك أحد حرجاً

من ذلك وضيقاً من تسلط أهل قريش عليهم .. فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن قام أول واحد فذبح وحلق .. فلما رأى أصحابه ذلك فعلوا مثله .. فالقائد قدوة يا بُني وليس سيفاً على رقاب أتباعه، والقدوة بالفعل وليس فقط بالكلام.

قال: الآن فهمت سر تغير أصحاب أبي الهول وطاعتهم له.

قال: إذن أكمل القصة.

قال: بعدما صعد أبو الهول ومعه ثمانية وعشرون من أصحابه أعلى سور القلعة، طلب منهم أبو الهول أن ينتظروه حتى يقفوا الخبر ويكشف الأثر، ثم بحث عن يوقنا فوجده وعنده كبار البطارقة يجلوس وبين أيديهم الخمر، ويوقنا يجلس في وسطهم على بساط من الديباج منسوج من الذهب وعليه بدلة من اللؤلؤ ومعصب بعصابة من الجوهر، فعاد أبو الهول إلى أصحابه، فأخبرهم أن عدد أعدائهم كثير وأن عليهم الانتظار إلى الأسحار، ثم يهجموا على يوقنا ومن معه من عُلية القوم فيقتلوهم، فإذا ظفروا بهم وأيدهم الله عليهم، سيطروا على القلعة، وإن كان غير ذلك يكون الصباح قد اقترب، وأوشك خالد بن الوليد على الاقتراب ويأتي الفرج، فقال أصحابه: "ما نخالف لك أمراً ونحن قد صرنا في قلعة هؤلاء الأعداء .. وليس ينجينا إلا صدق جهادنا والعزم والشدة من قوتنا".

ثم طلب أبو الهول من أصحابه أن يلزموا مكانهم، وذهب محاولاً أن يفتح باب القلعة، وكان لها بابان، والبوابون داخلهما والرجال تنام عندهما بالتناوب، فلما وصل إلى الباب وجده مغلقاً، وإذا بالقوم رقود

من السُكر، فعاجلهم بالذبح وفتح البابين وتركهما مردودين، ثم عاد إلى أصحابه وقد قرب الفجر، فبشرهم أنه فتح البابين وقتل من كان وراءهما، ثم أرسل رجلاً من أصحابه يستعجل خالداً ويبشره، وأرسل خمسة من أصحابه يحرسون الباب، وأخذ الباقي نحو دار يوقنا، فوقع الصياح في القلعة، فرجعوا جميعاً إلى الباب وأخذ كل واحد منهم مكاناً يحميه، وصرخ يوقنا في أصحابه فأتوا من كل جانب، وكبر المسلمون معاً كرجل واحد: "الله أكبر"، فخُيل للروم أن القلعة مليئة بالمسلمين.

قاتلت الروم قتالاً شديداً، وأما أبو الهول وأصحابه فكانوا كالأسود الضارية، وقاتل أبو الهول كأقوى ما يكون في ذلك اليوم، وثبت أما الجمع الكثير من الروم، كأنه الجبل لا يتحرك، حتى أنه أصيب بثلاثة وسبعين جرحاً كلها في مقدمة بدنه، وبينما هم في أشد القتال؛ يحمي بعضهم بعضاً وقد قُتل منهم أربعة وهم أوس بن عامر الحزمي وأبو حامد بن سراقة الحميري والفارع بن مسيب التميمي وفزارة بن مراد العوفي، وبقي ثلاثة وعشرون فارس.

يحكي نوفل بن سالم عن جده غويلم بن حازم وكان ممن صحب أبا الهول في تلك القلعة، يقول: لما قُتل من قتل منا وبقي نحو عشرين رجلاً وتكاثرت الروم علينا في أزيد من خمسة آلاف .. ونحن قد أيسنا من الحياة .. إذ دخل علينا خالد بن الوليد ومعه جيش الزحف فوجدنا ونحن في أشد ما يكون من القتال .. فلما دخلوا علينا صاح فيهم خالد فجفلت الروم عنا .. فلما رأيناهم كذلك وانفرج عنا ما كنا فيه اشتدت قلوبنا .. فعندها كبر المسلمون ودخل ضرار وأمثاله يضربون رقابهم

.. فلما رأى الروم ذلك وعلموا أنهم لا طاقة لهم بما وقع بهم ألقوا السلاح ونادوا "الغوث الغوث" وكفوا أنفسهم عن القتال .. فكفت المسلمون أيديهم عنهم .. وبينما هم كذلك إذ أقبل أبو عبيدة فأخبروه أن الروم يطلبون الأمان وأن المسلمين قد رفعوا عنهم القتل إلى أن ترى فيهم رأيك .. فأمر أبو عبيدة باحضار رجالهم ونسائهم وعرض عليهم الإسلام.

هنا توقف مصطفى وقال: يا أبي .. أليس ما حدث هزيمة ليوقنا .. وقد أخبرتني أنه لم يهزم أبداً؟

قال الوالد: سأجيبك غداً .. بإذن الله.

يوقنا .. استسلام وإسلام

في اليوم التالي، قال الوالد: اليوم أجيبك على سؤالك يا مصطفى .. هل انهزم يوقنا أم لا؟

قال مصطفى: يسعدني أن أسمع منك يا أبي.

قال: لقد انهزم بالفعل يوقنا .. لا يمكن انكار ذلك .. لأن المسلمين قد فازوا باقتحام القلعة والسيطرة عليها وعلى من فيها .. لكنه في نفس اللحظة فاز هو أيضاً بدخوله في الإسلام قبل فتح القلعة بوقت يسير .. وبذلك تتحول هزيمته ليس فقط إلى نصر بل إلى نصر مبين .. نصر مؤيد من رب العالمين .. لعبد أراد الحقيقة فهداه الله إلى اليقين .. وبذلك استسلم يوقنا للهزيمة بعد أن أسلم .. فليس بين الإخوة نصر وهزيمة .. وقد صار يوقنا أخاً في الإسلام لأبي عبيدة وخالد رضي الله عنهما .. ألا تعتقد ذلك؟

قال مصطفى: بلى يا والدي .. لقد أسلم يوقنا بالفعل من أول لحظة دخل فيها المسلمون قلعته، بل كان أول من أسلم لله تعالى ومعه عدد من كبار قومه، وقد عفى أمين الأمة أبو عبيدة عنهم من القتل والأسر ورد عليهم أموالهم، وبذلك غنم الجميع وفازوا بنصر مبين، كما غنم المسلمون الكثير من الذهب والخير، فأخرج منه أمين الأمة الخمس وقسم الباقي على المسلمين.

أما أبو الهول فقد أخذ الناس في الحديث عنه وعن حيله، بينما كان الأطباء يداوون جراحه، وأعطاه أبو عبيدة سهمين بدلاً من سهم،

وبذلك استحق أبو الهول أن يُكتب اسمه بماء الذهب في تاريخ الأمة الإسلامية وفي تاريخ الحيل العسكرية والشجاعة والدهاء جميعاً.

عقب النصر، لم يمهل أبو عبيدة أصحابه إلا قليلاً قبل أن يستشيرهم ويقل لهم: إن الله وله الحمد قد فتح هذه القلعة على أيدي المسلمين وما بقي لنا موضع نخافه .. فهل نقصد أنطاكية وهي دار الملك وكرسي عزهم وفيها بقية ملوكهم .. فما ترون من الرأي؟

فتكلم يوقنا بلسان عربي فصيح وقال: أيها الأمير إن الله تبارك وتعالى قد أيدكم ونصركم وما ذاك إلا أن دينكم هو الدين القويم والصراط المستقيم .. ونبيكم هو المشهور في الإنجيل وهو لا محالة الذي بشر به المسيح .. لا شك فيه ولا مراء .. وهو الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل .. وهو النبي الكريم اليتيم الذي يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه فهل كان ذلك أم لا؟

تعجب أبو عبيدة وقال: نعم هو نبينا صلى الله عليه وسلم .. وإني يا يوقنا قد حرت في أمرك .. أنت بالأمس تقاتلنا ومرادك أن تكسر عسكرنا وتقطع الطريق على علوفتنا .. واليوم تقول مثل هذا القول .. وقد بلغني أنك لا تفهم بالعربية شيئاً .. فمن أين لك حفظها؟

قال يوقنا: لا إله إلا الله .. محمد رسول الله .. وإنك تعجب أيها الأمير من هذا الأمر .. اعلم أيها الأمير أني كنت البارحة مفكراً في أمركم وقد وصلتم إلى قلعتنا ونُصرتم علينا .. وإنه لم يكن عندنا أمة أضعف منكم وتوسوست في ذلك .. فلما نمت رأيت شخصاً أبهى من القمر وأطيب رائحة من المسك الأذفر ومعه جماعة .. فسألت عنه .. فقيل لي

هذا محمد رسول الله .. فكأنّي أقول إن كان نبياً حقاً فليسأل ربه أن يعلمني العربية .. وكان يشير إلي وهو يقول: يا يوقنا أنا محمد الذي بشر بي المسيح وأنا لا نبي بعدي وإن أردت فقل لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ... فأخذت يده فقبلتها وأسلمت على يديه ... واستيقظت وفمي من تلك الليلة كالمسك الأذفر وأنا أتكلم بالعربية .. ثم إني قمت إلى منزل أخي يوحنا وفتحت خزانة كتبه .. فوجدت في بعض الكتب صفة محمد صلى الله عليه وسلم وما يكون من أمره ووجدت كل الصفات صحيحة وإن أبغض الخلق إليه اليهود ... أكان ذلك أيها الأمير أم لا؟

قال أبو عبيدة: نعم كانت اليهود تطلبنا أشد الطلب حتى نصرنا الله عليهم وأخذنا حصونهم وقتلنا أبطالهم.

قال يوقنا: وجدت هذا في سيرته وجملة أخباره وأن الله تعالى كان يوصيه بأصحابه وبالمسلمين وبالأيتام والمساكين .. أكان ذلك أم لا؟

قال أبو عبيدة: نعم .. أما وصيته من الله على أصحابه فقد قال الله تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} .. وقال في حق اليتيم والمسكين: { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ}.

قال يوقنا: وقال الله {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ} .. فما معنى وصفه بالضلال وهو عند الله كريم؟

فأجابه تلميذ النبي معاذ بن جبل رضي الله عنه قائلاً: وجدناك ضالاً في تيه صحبتنا .. فهديناك إلى مشاهدتنا وسهل لك الوصول إلى سبل المكاشفة ووفقك للوقوف في مقام المشاهدة .. ووجدك ضالاً في بحار

الطلب على مركب العطب فهداك إلى سواحل الحق وقربك إلى ظل حقائق الصدق لتكون بقلبك مائلاً عن الأغيار أو تهيم في قيعان الاختيار متمنياً ساعات الوصول والتلاقِ وليس لك منا خبر ولا معك منا أثر ... ألحنا لك لوائح الرضا وكشفنا لك عن واضح القضا ... أما علمت يا يوقنا أنه لا شيء عند المؤمن أوفى من العلم ولا أربح من الحلم ولا حسب أوضح من الدين ولا قرين أزين من العقل ولا رفيق أشر من الجهل ولا شيء أعز من التقوى ولا شيء أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أعلى من الصبر ولا سيئة أسوء من الكبر ولا دواء الين من الرفق ولا داء أوجع من الخرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا فقر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أحسن من الصحة ولا معيشة أهنا من العفة ولا عبادة أفضل من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت.

فلما سمع يوقنا كلمات معاذ الجامعة المانعة والعلم والفهم العميق الذي تعلمه من النبي الأمي الكريم تهلل وجهه بالفرح وخر ساجداً ثم قال: هكذا قرأته في كتب أخي يوحنا وهو مذكور في الإنجيل والتوراة .. الحمد لله الذي هداني إلى هذا الدين .. والله لقد رسخ هذا الدين في قلبي وعلمت أنه الحق وسأقاتل في الله كما كنت أقاتل في طاعة الشيطان ... ووالله لأنصرن هذا الدين حتى الحق بأخي يوحنا.

فقال له أبو عبيدة: قال الله في حق إخوة يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .. إن أخاك في عليين مع الحور العين .. وأما أنت فساعة أسلمت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك.

فبكى يوقنا بكاءً شديداً وقال: أُشهد علي المسلمين أني كلما جاهدت وقتلت من المشركين فثوابه في صحيفة أخي يوحنا ولا بد أن أقاتل في سبيل الله وأمحو ما سلف من الفعال.

هنا تحدث الوالد وقال: صدق الله العظيم إذ يقول: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} .. والآن قم إلى سريرك يا بُني فلديك دراسة في الباكر ويجب أن تخلد للنوم .. أريدك أن تكون متفوقاً في الدراسة يا بُني .. فإن العلم هو طريق الرفعة والنصر كما قال معاذ رضي الله عنه.

قال مصطفى: نعم .. يا أبي .. غداً أكمل بإذن الله.

يوقنا يفتح حصن عزاز

في مساء اليوم التالي، وبعدما انتهى مصطفى من دروسه، قال له الوالد: ماذا ستقص علينا اليوم يا مصطفى؟

قال: ما ذكرته لي أول يوم يا والدي عن جنود الله التي لا يعلمها إلا هو .. وكيف قد ينصر الله دينه بأشد أعداء الدين .. وذلك أنهم قد يتحولون من العداوة الشديدة له تعالى إلى الولاء والحب الشديد له .. كما حدث مع سيف الله الأعجمي .. كما أطلقت عليه يا أبي .. والذي صار من أقوى وأفضل القادة في جيش المسلمين .. ولقد شهد عامر بن زيد في حق يوقنا بكل خير، فقال: كنت ممن شهد فتوح الشام مع أبي عبيدة وكنت كثيراً ما أصحب الروم الذين دخلوا في ديننا .. فلم أر منهم أشد اجتهاداً ولا أخلص اعتقاداً ولا أعظم نية ولا أحسن في الجهاد حميةً ولا أبلغ في قتال الروم من يوقنا .. ولقد نصح والله للمسلمين وجاهد الكافرين وأرضى رب العالمين .. ولقد فعل في الروم ما لم يقدر أحد عليه من أبناء جنسه من بعد ما قاسى المسلمون منه على قلعة حلب .. وما تركهم ينامون ولا يقرون ليلاً ولا نهاراً.

حينما أبدى يوقنا حُسن نيته، سأله أبو عبيدة عن رأيه في أي مدينة يبدأ بالتوجه لفتحها، فقال له يوقنا: اعلم أيها الأمير أن حصن عزاز حصن منيع وهو قوي بالرجال والعدد والزاد وفيه ابن عم لي اسمه دراس بن جوفناس وهو ذو شدة وبأس .. جلد في الحرب قوي عند الطعن والضرب .. وإن أنتم تركتموه ومضيتم إلى مدينة أنطاكية أغار على حلب وقنسرين وأذاقهم شراً.

فقال أبو عبيدة: يا عبد الله قد أنطق الله لسانك بالحق والصواب ... فما عندك من الحيلة؟

قال يوقنا: الرأي أن أركب جوادي وتضم إلي مائة فارس من المسلمين .. ولنكن على زي الروم ولباسهم وأتقدم بهم .. ثم يتقدم أمير من العرب ومعه ألف فارس على خفاف الخيل وأنا في المقدمة بالمائة فارس على مقدار فرسخ كأننا هاربون منكم ... وأوائل الخيل الألف في طلبنا فإذا أشرفنا على عزاز نلقي الصوت فإذا نظر إلينا صاحبها دراس لا بد أن ينزل إلينا ويلقانا ... فإذا سألني أخبرته أني أسلمت زوراً ثم هربت .. فخرجت العرب في طلبي .. فإذا سمع مني ذلك يصعد بنا إلى حصنه ... وليكن مقدم الألف بالقرب منا في قرية هناك .. فإذا كان نصف الليل سرنا في وسط الحصن ونضع السيف في أعدائنا ... فإذا كان عند الفجر يأتينا أمير العرب بالألف الذي معه.

فلما سمع أبو عبيدة ذلك استنار وجهه واستشار خالداً ومعاذاً في ذلك فقالا: يا أمين الأمة .. رأي سديد إن لم يغدر هذا الرجل ويرجع إلى دينه.

قال أبو عبيدة: إن ربك لبالمرصاد.

فقال يوقنا: أنا والله رجعت عن ديني إلى دينكم بعدما كنت أعظّم من تلك الصور والصلبان .. وما بقي في قلبي سوى محبة الرحمن .. ومحمد سيد ولد عدنان .. والجهاد عن أفضل الأديان .. واللهُ على ما أقول وكيل .. وحق الذي لا إله إلا هو وحق محمد عبده ورسوله صلى

الله عليه وسلم الذي رأيته وعاينته في المنام .. إن كنتم تظنون في غير ذلك فلا تتركوني أفعل شيئاً مما ذكرته لكم.

فرد عليه أبو عبيدة بكلمات تستحق أن تُكتب بماء الذهب.

قال الوالد: وهل حفظت تلك الكلمات يا بُني؟

قال مصطفى: لقد اجتهدت في فهمها .. ولقد جمع أمين الأمة بين أنواع الخير في نصيحة واحدة .. ثم أخرج مصطفى ورقة وبدأ يقرأ منها مقولة أبي عبيدة رضي الله عنه، قال: يا عبد الله إن أنت نصحت للمسلمين ولم تغدر بهم كان الله لك معيناً في كل ما تحاوله .. فأتبع الصدق تنج به فإن ديننا مبني على الصدق .. وأعلم أن المؤمن الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه ما وجد .. فلا يحزنك ما تركت من ملكك وحكمك وامارتك .. فإن الذي تركته فانٍ والذي تطلبه باقٍ .. لأن نعمة الدنيا فانية والآخرة خير وأبقى .. واعلم أنك في يومك هذا عارٍ من الشرك .. واعلم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .. والمؤمن يتيقن أن القبر مضجعه والخلوة مجلسه والاعتبار فكره والقرآن حديثه والرب أنيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع إدامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفته والجنة داره ... واعلم يا يوقنا أن المسيح قال: "عجبت لمن ليله غافل وليس بمغفول عنه ومؤمل دنيا والموت يطلبه والقبر مسكنه" ... وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم: "من أعطى أربعاً أُعطي أربعاً" وتفسير ذلك في كتاب الله تعالى من أعطى الذكر ذكره

الله عز وجل لأن الله تعالى يقول: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} .. ومن أعطى الدعاء أُعطى الإجابة لأن الله تعالى يقول: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} .. ومن أعطى الشكر أُعطى الزيادة لأن الله تعالى يقول: {لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} .. ومن أعطى الاستغفار أُعطى المغفرة .. لأن الله تعالى يقول: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا}.

ولما فرغ أبو عبيدة من وعظ يوقنا ضم إليه مائة فارس وألبسهم زي الروم .. وكان كل عشرة من قبيلة وعلى كل عشرة نقيب، ثم قال لهم أبو عبيدة: اعلموا رحمكم الله أني مرسلكم مع هذا الرجل الذي وهب نفسه لله ورسوله وكل طائفة منكم عليها نقيب وقد وليته عليكم ... فاسمعوا له وأطيعوا ما دام مرضاة الله عز وجل.

ثم سار يوقنا ومعه المائة فارس، ولما بعدوا بفرسخ أرسل وراءهم ألف فارس وأمّر عليهم مالكاً الأشتر، وأوصاه أن يسير في أثرهم، فإذا قرب من الحصن يكمن إلى وقت السحر ثم ينضم إلى يوقنا، فسار مالك الأشتر يقدم قومه فساروا بقية يومهم، فلما جن عليهم الليل كمنوا في قرية بالقرب من الحصن وهي خالية من السكان.

حينما اقترب يوقنا من عزاز، قال لأصحابه: اعلموا يا فتيان العرب أنا قد شارفنا هذا العدو .. فإياكم أن يتكلم أحد منكم .. فإن لغتكم لا تخفى على الروم وأنا المترجم عنكم .. وكونوا على يقظة من أمركم .. فإذا رأيتموني وقد بطشت بصاحب الحصن فثوروا على اسم الله تعالى.

في ذلك الوقت، كان مالك الأشتر يسير في أثر يوقنا، حتى وصل قرية ينتظر الفجر ليلحق بيوقنا في الحصن، فإذا بجيش قد أتي من غربي

القرية .. فسار مالك الأشتر وغاب قليلاً ثم عاد ومعه رجل من العرب المتنصرة، وقال مالك لأصحابه: يا فتيان اسمعوا ما يقول هذا الرجل، فسألوه عن قبيلته واسمه، فأخبرهم الرجل أنه من غسان من بني عم جبلة بن الأيهم قائد جيش العرب المتنصرة، واسمه طارق بن شيبان.

فقال له مالك: يا طارق بحق ذمة العرب لا تكتمنا أمراً تعرفه من أعدائنا.

قال: والله لا أكتم أمراً أعرفه ولكن خذوا على أنفسكم قبل قدوم عدوكم.

قال مالك: وكيف ذلك؟

قال: لأن البارحة ورد علينا جاسوس من عندكم وهو منا .. وكان يسمع ما تناجيتم به من الحيلة التي أرادها يوقنا على صاحب عزاز .. فلما سمع الجاسوس ذلك .. كتب رقعة وربطها تحت جناح طير كان معه وأطلقه إلى صاحب عزاز .. فلما قرأها أرسلني إلى لوقا بن شاس صاحب الراوندات يستنجده عليكم ... فمضيت إليه بالرسالة وهو قادم في خمسمائة فارس وكأنكم بهم وقد هجموا .. فخذوا حذركم.

وبينما يستجوب مالك طارق الغساني، كان يوقنا قد وصل إلى الحصن، فوجد صاحبه قد تجهز ومعه أصحابه وهو خارج الحصن، وكان معه ثلاثة آلاف فارس من الروم وألف من العرب المتنصرة، فلما قدم عليه استقبله بحفاوة وترجل إليه وأقبل عليه يرحب به، وكان معه سكين فقطع به حزام فرس يوقنا وجذبه إليه فوقع يوقنا، وأطبق الأربعة آلاف فارس على أصحاب يوقنا، ولم يمهلوهم وأخذوهم وأوثقوهم.

بصـق دراس فـي وجـه يوقنـا وقـال لـه: لقـد غضـب عليـك المسـيح والصليب إذ فارقت دينك ودخلت في دين أعدائك .. وحق المسيح لا بد لي أن أبعثك إلى الملك الرحيم هرقل يصلبك على باب أنطاكية بعدما أضرب رقاب هؤلاء العرب.

لم يكن صاحب عزاز قد وصله خبر مالك الأشتر ومعه الألف فارس، ولما علم مالك بما علم، أقام كميناً وجلس ينتظر صاحب الراوندات، فلما أسدل الليل ستاره سمع صوت حوافر خيلهم، فانتظرهم حتى توسطوا الكمين وأطبق ومعه الألف فارس عليهم، فأسروهم وقيدوهم ولم يهرب منهم أحد، ثم لبسوا ثيابهم ورفعوا رايتهم وصليبهم، ثم عرض مالك على الغساني الإسلام، وقال له مالك: هل لك أن ترجع إلى دين الله عز وجل ودين نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .. فيمحو عنك ما سلف من الكفر بالإيمان وتبقى لنا من جملة الإخوان؟

فقال الغساني: إن قلبي ولبي عندكم .. فلا جزى الله من ألجانا إلى الدخول في هذا الدين خيراً .. وأنا والله من الطائفة التي هي أول من أسلم على يد عمر بن الخطاب .. وقد سمعنا عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من بدل دينه فاقتلوه".

فقال له مالك: لقد صدقت في قولك ولكن انسخ هذا الحديث بقول لا إله إلا الله ... فقد قال الله تعالى: {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبة وحشي قاتل عمه حمزة فأنزل الله فيه الآيات.

فرح الغساني بما سمع من مالك ودخل في الإسلام، وقال: الآن والله يا مالك قد طاب قلبي وانجبر كسري .. أخذ الله بيدك وأنقذك الله يوم القيامة.

ففرح مالك بإسلامه وقال له: وفقك الله وثبت إيمانك .. وإني أريد أن تمحو ما سلف منك بما تفعله.

فقال الغساني: وما تريد أيها الأمير؟

قال: تمضي إلى صاحب عزاز وتبشره بقدوم صاحب الراوندات إلى نصرته.

فقال: أفعل ذلك إن شاء الله وإن كنت في شك من أمري فأرسل معي من تثق به حتى يسمع ما أقول .. فإن الليل قد تنصف والحرس شديد وباب الحصن مقفول وأنا أخاطبهم من شفير الخندق.

قبل وصول الغساني ومعه قريب مالك الأشتر، كان ابن صاحب عزاز ويُدعى "لاوان" قد تسلل إلى يوقنا وعرض عليه المساعدة، وذلك لأنه أقام عند يوقنا في السابق مدة، وقد حضر عنده في عيد الصليب، وكان يرى ابنة يوقنا، فوقع بقلبه حبها، ولما عاد إلى عزاز أخبر أمه، فوافقته وأخبرته أنها تطلب من والده أن يرسل ليخطبها له، واشتغل قلب الشاب بحبها، وأثناء ذلك جاءت العرب إلى بلادهم، فلما وقع يوقنا في يد أبيه وقبض عليه وعلى أصحابه وحبسهم جميعاً في دار لاوان، حدث لاوان نفسه أن يوقنا أعلم من أبيه بالأديان، ولولا أنه رأى الحق مع هؤلاء العرب ما تبعهم بعدما قاتلهم أشد القتال، كما أن الله قد

نصرهم على ضعفهم، وزاده تعاطفاً حبه لابنة يوقنا، فقرر أن يحله من الوثاق ويدخل في الإسلام، ويطلب منه أن يزوجه ابنته.

فأقبل لاوان على يوقنا وقال له: يا عم .. إني عولت على أن أحل وثاقك أنت وأصحابك وقد اخترتك على أهلي وأبي وملكي .. وأنت تعلم أن فراق الأهل صعب .. واخترت الإيمان على الكفر .. وقد علمت أن دين هؤلاء صحيح .. ولكن لي عليك شرط أن تزوجني ابنتك ومهرها عتقك أنت وهؤلاء الناس الذين معك.

فقال يوقنا: يا بُني ما لك إلى زواجها من سبيل إذا كنت تدخل فيه لأجل الدنيا .. ليكن دخولك فيه خالصاً من قلبك حتى أن الله يأجرك على ما تفعله ... وإنا إن شاء الله تعالى أبلغك ما ترومه .. وتنال عز الدنيا والآخرة.

فقال لاوان: .. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله.

ثم قام لاوان بحل وثاق يوقنا وأعطاه سلاحه وحل المائة وأعطاهم سلاحهم، وأخبرهم أن يستعدوا بينما يذهب هو إلى أبيه وهو ثمل بالخمر فيقتله، ثم يهجموا جميعاً على من في الحصن.

فقال يوقنا: أشهدوا علي أني زوجته ابنتي وجعلت صداقها عتقنا.

قبل لاوان ذلك بسرور، ومضى إلى دار أبيه، فوجد إخوته عنده وقد قتلوه، وقد أرادوا بذلك وجه الله، وقد سمعوا حديثه مع يوقنا، فخافوا ألا يتم الأمر ويتكاثر الجمع عليه، فبطشوا به قبل أن يبطش بهم، ففرح لاوان بذلك ورجع إلى يوقنا وأصحابه وأعلمهم بما حدث، فخرجوا

وتوسطوا الحصن ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وقاتلوا الروم وارتفع الصياح في كل مكان.

في تلك الساعة قدم الغساني ومعه قريب مالك الأشتر فسمعا الأصوات، فرجعوا مسرعين إلى مالك وأخبراه بما سمعا، فأمر مالك أصحابه بالإسراع، وترك منهم مائة يحرسون الأسرى، فلما قربوا من الحصن، وكان يوقنا قد أخبر لاوان أن نجدة من المسلمين تلحق بهم، فرأى لاوان المسلمين ففتح لهم باباً سرياً من أبواب الحصن، فلما دخلوا حصن عزاز كبر مالك هو ومن معه، فلما رأى أهل الحصن ذلك ألقوا سلاحهم ونادوا: "الغوث الغوث"، فرفعوا عنهم السلاح وأخذوهم أسارى، وشكر مالك يوقنا على شجاعته وبذله في سبيل الله، وحدثه يوقنا بخبر لاوان، فقال مالك: "إذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه".

قال الوالد: "إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه" .. ماذا يقصد مالك بتلك الكلمة يا مصطفى؟

قال مصطفى: لأن إسلام لاوان وأخيه له قصة طويلة.

قال الوالد: حقاً .. إذن سأنتظرك غداً بكل شوق كي تقصها علي يا بُني.

قال مصطفى: بإذن الله يا أبي.

قس عزاز يعتنق الإسلام

كان أبو لبابة بن المنذر ممن حضر فتوح عزاز، وهو صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وقد حضر معه غزوة بدر، وقد ذكر أبو لبابة أنه لما انتهى القتال بين المسلمين والروم، جمع مالك الأشتر الأسرى والمال والذهب والفضة، ثم قام يمشي فوجد صاحب الحصن دراس مقتولاً، فسأل عمن قتله، فأخبره لاوان أن أخاه لوقا قتله، فأمر مالك باحضار لوقا وسأله عن سبب قتله وهو أبوه، فأخبره أن محبة الإسلام دفعته إلى ذلك، ثم قص عليه كيف أسلم، فقد كان لديهم قس شيخ كبير، وكان عليماً بالإنجيل، وفي يوم ما كانا يجلسا معاً وليس هناك أحد غيرهما، فسأله لوقا عن كيفية استيلاء العرب على بلاد الشام وهزيمة جيوش الملك هرقل، وما كان في الأمم أضعف منهم، فكيف نصرهم الله تعالى على ضعفهم؟ وهل ذُكر ذلك في كتب الروم أو ملاحمهم؟ فأخبره القس أنه قرأ ذلك، كما أن الملك هرقل قبل نصرة العرب جمع إليه الأمراء والبطارقة وكبار القوم وأخبرهم أن العرب لا بد أن يملكوا ما تحت سريره، وأن نبيهم قال: "زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها". ثم سأل لوقا القس عن رأيه في النبي محمد، فأخبره أن الإنجيل قد ذكر أن الله يبعث نبياً بالحجاز، وقد بشر به عيسى بن مريم، ولا ندري أهو هذا أم لا، ففهم لوقا أنه يخفي الأمر مخافة على نفسه فكتمه أيضاً، ولما رأى لوقا يوقنا قد أسلم، فكر في الأمر؛ هذا الرجل قتل أخاه يوحنا وقاتل العرب ثم رجع إلى دينهم، ما ذاك إلا أنه قد علم الحق معهم، فقرر لوقا حينها أن يقتل أباه ويخلص يوقنا وأصحابه ويدخل في الإسلام، فهو الدين الحق،

فلما نام دراس بعدما سكر من الخمر قتله لوقا وسار إلى يوقنا فوجد لاوان قد سبقه إليه.

وحينما سمع مالك تلك القصة، دعى لكل من لوقا ولاوان بالخير، وقبل أن يرحل مالك عُرض عليه سبي عزاز، فكان ألفاً من الشباب ومائتين وخمسة وأربعين رجلاً من الشيوخ والرهبان وألفين من النساء والبنات ومائة وثمانين عجوزاً، فنظر إلى شيخ من الرهبان مليح الشبيبة واضح الهيبة، فقال: إن صدقت الفراسة فهذا القس الذي أخبرني به لوقا وأخوه لاوان، فدعا بهما، فسألهما عليه، فأخبراه أنه هو.

قال له مالك: .. إذا كنت من علماء أهل الكتاب .. فكيف تكتم الحق؟

فقال القس: والله ما كتمت الحق عن مستحقيه ولكن خفت من الروم أن يقتلوني .. لأن الحق ثقيل .. وقد قتلوا الأبناء والإخوة وذلك لأجل الحق فكيف أنا؟

فقال له مالك: أفتدخل في ديننا؟

فقال القس: لست أدخل فيه إلا إذا سألتكم عن مسائل وجدتها في الإنجيل.

فقال له مالك: هات ما عندك.

فلما أراد القس أن يتكلم وقع الصياح في الحصن، وأسرع مالك لينظر ما حدث، وظن أن الروم قد غدرت بهم، وكان هناك غبرة على الطريق، فركب مالك ومن معه ووقفوا ينتظرون، فظهر من بعيد ألف فارس من المسلمين وأميرهم الفضل بن العباس رضي الله عنه، ومعهم

السبايا والأموال والرجال، وكان قد أرسله أبو عبيدة إلى غازي منبج والباب وبزاعة، فالتقى الجيشان وسلم بعضهم على بعض وتحدث الفضل مع مالك، فحدثه مالك أن الله قد فتح عزاز، وحدثه بما كان من حديث يوقنا وأنه ما منعه من الرحيل إلا هذا القس.

فقال له الفضل: أيها القس قل ما أنت قائل.

فقال القس: أخبرني عن أي شيء خلقه الله تعالى قبل خلق السماوات والأرض.

فقال الفضل: أول ما خلق اللوح والقلم .. ويُقال العرش والكرسي .. ويُقال الوقت والزمان .. ويُقال العدد والحساب .. ويُقال أول ما خلق الله جوهرة فنظر إليها فصارت ماءً .. ثم خلق العرش ياقوته وكان عرشه على الماء .. وأنه نظر إلى الماء فاضطرب وارتعد وصعد منه دخان فخلق الله منه السماء ثم خلق الأرض .. وقيل خلق أولاً العقل لأنه أراد أن ينتفع به الخلق .. وقيل أول ما خلق الله نوراً وظلمة ثم دعاهما إلى الاقرار .. فأنكرت الظلمة وأقر النور فخلق منه الجنة لرضاه عنه وخلق النار من الظلمة لسخطه عليها .. وخلق أرواح السعداء من النور وأرواح الأشقياء من الظلمة فلأجل ذلك كل منهم يرجع إلى مستقره .. ويُقال أول ما خلق الله نقطة فنظر إليها بالهيبة فتضعضعت وسالت ألفاً فجعلها مبدأ كتابه العزيز .. فسبحان من ألف كتابه من نقطة وخلق خلقه من نقطة ثم يميتهم بقبضة ويحييهم بنفخة.

فلما سمع القس ذلك الكلام من الفضل ابن العباس قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ... هذا هو العلم الذي استأثر به أنبياء الله تعالى.

فلما نظر أهل عزاز إلى قسهم وقد أسلم، أسلموا جميعاً إلا قليل منهم. ثم قرر الفضل ومالك العودة إلى أبي عبيدة في مدينة حلب، بينما أخبرهم يوقنا أنه لا يريد العودة، فكيف يواجه المسلمين، وكان قد دبر أمراً ولم يتم، وقرر يوقنا السير إلى أنطاكية، لعل الله أن يظفره بالاعداء وينصره عليهم.

فقال له الفضل: إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ليس لك من الأمر شيء ... فلا تحمل قلبك هماً.

فقال يوقنا: ودين الإسلام لا أرجع إلا بأمر يبيض الله به وجهي عند إخواني المسلمين.

وكان هناك مائتان فارس من بني عمه ممن قد رسخ في قلوبهم الإيمان ولهم أولاد في حلب فأخذهم يوقنا ثم سار يريد أنطاكية.

يوقنا في مواجهة هرقل

سار يوقنا إلى مدينة انطاكية مقر إقامة الملك هرقل، ولما اقترب منها أخذ أربعة من أصحابه وأمر الباقي أن يتأخروا بعده ثم يأتوا وكأنّهم هاربون من العرب، وهكذا وضع يوقنا خطته، ليتم ما دبره في خاطره. ثم سار يوقنا ومعه الأربعة على طريق وسار الباقي على طريق آخر، حتى أقبل يوقنا على دير سمعان المشرف على البحر، فوجد هناك حرساً على الطريق، فلما رأوا يوقنا استخبروه عن حالهم، فأخبرهم يوقنا عن شخصيته وأنه قد هرب من المسلمين، فأمر كبير الحرس بعض حراسه أن يأخذوهم إلى الملك.

وصل يوقنا إلى الملك هرقل وكان في كنيسة الفتيان يصلي، فانتظر حتى فرغ من صلاته، ووقف بين يديه، فسأله هرقل عن سبب قدومه عليه وقد دخل في دين العرب، فأخبره يوقنا أنه ما أسلم إلا مكيدة للقوم حتى يتخلص من شرهم ومن كراهة منظرهم ونتن رائحتهم، وقد وعدهم بتسليم إليهم حصن عزاز وأخذ منهم مائة من ساداتهم وسار بهم إلى الحصن، وطلب منهم أن ينفذوا ورائه ألف فارس، وقد عزم على أنهم إذا صاروا داخل الحصن قبض عليهم، فعجّل به دراس صاحب عزاز ولم يفهم ما أضمره واثقاً بكلام جاسوسه، فأتت العرب ووضعت السيف في أهل عزاز، وذلك أن لوقا قتل أباه دراس، وبينما الجميع مشغولون بالقتال هرب ومعه هؤلاء الأربعة، ثم استشهد يوقنا على إخلاصه بقتله أخيه يوحنا وقتال العرب والصبر على حصارهم شهوراً كثيرة.

كان لدى هرقل عدد من البطارقة والملوك يحضرون لقاء الملك ويوقنا، فوقع في نفوسهم صدق يوقنا، وأيدوا كلامه، فانبسط وجه الملك هرقل وخلع عليه من لباسه وسوره، ثم ولاه على أنطاكية، ففرح يوقنا ودعى للملك بالخير، وبينما هم كذلك إذ أتى من يخبر الملك بقدوم مائتي بطريق من فرسان حلب وهم يزعمون أنهم من بني عم يوقنا، وأنهم قد هربوا من العرب، فطلب الملك من يوقنا أن يذهب إليهم، فإن كانوا من بني عمه ضمهم إليه ليكونوا من عسكره، وإن كانوا غير ذلك فليأت بهم ليرى الملك فيهم ما يرى، فركب يوقنا وركب معه بعض فرسان الملك، فلما رآهم يوقنا رحب بهم وكان قد ارتدى خلعة الملك عليه، فلما رآوه في الزي الملكي، قبلوا ركابه.

ثم أراد يوقنا أن يوقن فرسان الملك بصدق قصته، فسأل أقاربه عن كيفية خلاصهم من أيدي العرب، فأخبروه أنهم خرجوا مع أمير من أمرائهم فأغاروا على منبج وبزاعة، ثم أرادوا الرجوع إلى حلب، وبينما هم في الطريق علموا أن العرب قد ملكت حصن عزاز، فلما كان الليل أتينا نريد الملك، فسمع حجاب الملك ما قالوه، فأخبروا الملك بذلك، ولما دخل يوقنا بهم على الملك خلع عليهم وأحسن ضيافتهم وأمرهم أن يكونوا في خدمة يوقنا، وأعطاه داراً بإزاء قصره.

فقال يوقنا: أيها الملك أنت تعلم أن هذه الدار لا يدوم نعيمها .. وأن السيد المسيح شبهها بالجيفة وطلابها بالكلاب يتجاذبونها .. كما روى عن المسيح أنه رأى طائراً حسناً مزيناً بكل زينة فنزع جلده فرآه أقبح ما يكون منظراً ... فقال له من أنت قال أنا الدنيا ظاهري مليح وباطني

قبيح .. وإنما ضربت لك هذا المثل أيها الملك لتعلم أنه ما خلى جسد من حسد .. وإذا أقبلت الدنيا على أحد كثرت حسّاده ... وأنا أخاف من الحسّاد أن يتكلموا في عند الملك ويرموني بالبهتان وبما لا أفعله ... فإن كان الملك ينفر مني فليولِ هذه الوظائف غيري ... وأنا ما أبرح على ركابك.

فقال له الملك: أيها الدمستق ما وليتك هذا الأمر إلا وقلبي وخاطري يثق بك ... من تكلم فيك بشيء سلمته إليك تفعل به ما تريد.

فشكر يوقنا الملك وأراد الخروج إلى وظيفته التي ولاه إياها، فإذا بخيل قد أقبلت من مرعش وهم رسل ابنته زيتونة، وأنها خائفة من العرب، وهي تريد القدوم إليه حتى ترى ما يؤول من الأمر، وأنها تريد أن يُرسل لها جيشاً يوصلها إليه، وكان الملك قد ولاها على تلك البلاد وزوجها بنوسطير بن حارس وكانوا يسمونه سيف النصرانية لشجاعته، وكان قد قتل في موقعة اليرموك.

لما سمع الملك الرسل، طلب من يوقنا حمايتها، فسمع له يوقنا وأطاع، وسار مسرعاً إلى مرعش ومعه ألفان فارس ومائتان من أصحابه، وقد رفع الصليب فوق رأسه، فأخذ زيتونة بنت هرقل، ولما عاد يطلب بها أنطاكية ظل يترقب لعله يلقى أحداً من جواسيس المسلمين فيرسله ليعلم أبا عبيدة أنه قد تمكن من الملك، فلما وصل مرج الديباج وكان ليلاً أتى إليه بعض الفرسان وهم مذعورون، فأخبروه أن هناك بعض العسكر من العرب بجوارهم وهم نائمون، فأمرهم بالاستعداد للدفاع عن دينهم وعن ابنة الملك، وإذا تمكنوا من المسلمين أن يعتمدوا على الأسر ولا

يقتلوهم، فإن العرب لا بد لهم وأن يقصدوا الملك، فإن أسروا من الروم أحداً يكن لديهم الفداء، وقد ذُكر في كتاب حرفناس الحكيم؛ أن من نظر في عواقب زمانه توشح بوشاح أمانه، ومن أهمل أمره خاف حذره، ومن أكثر الغدر حل به الأمر.

قام يوقنا وفرسانه بتجهيز أنفسهم للقتال، وتوجهوا إلى عسكر المسلمين، فلما وصلوا وجدوهم يرفعون الصليب في أيديهم، فعرفوا أنهم من العرب المتنصرة أصحاب جبلة بن الأيهم، فترجل يوقنا عن دابته وسلم عليهم، ودار الحوار بينه وبين جبلة، وأخبره جبلة أنه قد لقي كتيبة من المسلمين نحو مائتي فارس، بينما هو وأصحابه في ألفي فارس، فلما التقوا بادروا جبلة ومن معه بقتال شديد، وكان قائدهم كالنار المحرقة وقتل الكثير من أشجع أصحاب جبلة، واستمر القتال حتى استطاع جبلة أن يأسرهم بعدما قتل الفارس منهم الاثنين والثلاثة من أصحابه، وبقي قائدهم إلى آخر القتال فرموا جواده بالسهام فقتلوه، فوقع فأخذوه أسيراً، وهو من أصحاب النبي محمد ويُدعى ضرار بن الأزور، ثم قرروا التوجه بهم إلى الملك هرقل ليرى فيهم رأيه، فتظاهر يوقنا بالفرح وقال: "وحق ديني لقد فزت بالفخر بأسرك لهؤلاء وهذا الغلام .. فلقد بلغني عنه ما فعل بأبطال الشام وفرسان الروم" ثم ساروا يطلبون جميعاً أنطاكية.

كانت تلك الكتيبة بقيادة ضرار بن الأزور، قد أرسلها أبو عبيدة رضي الله عنهما، عقب فتح حصن عزاز، فقد استبشر أبو عبيدة بسلامة الناس وبالفتوحات المبينة، وعلم أن يوقنا قصد أنطاكية ليدخل على

ملك الروم بحيلة، ففرح به ودعى له بالنصر، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الخطاب: "بسم الله الرحمن الرحيم من أبي عبيدة عامر بن الجراح إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .. سلام عليك .. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ... أما بعد فإن الله سبحانه له المنة علينا التي يستوجب بها الحمد من جميع المسلمين إذ فتح علينا مستصعب قلاع الكفر وحصونه وأذل لنا ملوكهم وأورثنا أرضهم وديارهم وإن سبحانه قد فتح علينا قلعة حلب وأردفها بحصن عزاز .. وإن البطريق يوقنا صاحب حلب قد أسلم وحسن إسلامه وقد صار عوناً للمسلمين على الكافرين من بعد ما قاسينا منه ما الله عالم به ... فلقد نصر الله به الدين ونصح للمسلمين وأباد المشركين وقد دخل أنطاكية يدبر حيلة على كلب الروم .. وقد ألقى بنفسه إلى الهلاك في طاعة الله ورسوله .. ولقد كتبت هذا الكتاب ونحن معولون على المسير إلى أنطاكية نقصد طاغية الروم ... فما بقي حصن سواه لأعدائنا قريباً منا ونحن طامعون في أخذه وأخذ سريره وكنوزه كما وعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فزودنا بالدعاء منك فإنه سلاح المؤمنين ودمار الكافرين والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته"، ثم أخرج أبو عبيدة خُمس الغنائم وأرسلها مع خطابه إلى أمير المؤمنين، وفي نفس الوقت، طلب من ضرار بن الأزور أن يخرج في مائتي فارس للاستطلاع، فالتقى به جبلة ومن معه فأسروهم.

ضرار بن الأزور

كان ضرار بن الأزور ومعه مائتان من الفرسان، قد ساروا حتى وصلوا إلى "مرج دابق"، وكان وقت السحر، فنزلوا يرتاحوا بقية ليلتهم، ففاجئهم جبلة وجنوده، فركب ضرار ومعه نحو مائة فارس وأما المائة الأخرى وصل إليهم عدوهم قبل أن يتمكنوا من الركوب، فقاتلوا رجالاً وقتل كل واحد خصمه ولكن الأعداء تكاثرت عليهم فأسروهم. أما ضرار فقد خطب في المائة الثانية وقال: يا فتيان العرب أن أعداءكم قد هاجموكم على حين غفلة منكم ... وهذه أفضل الساعات عند الله ... فقووا عزمكم ولا تفشلوا ... فأنتم تعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الجنة تحت ظلال السيوف" .. وقد قال الله تعالى: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

ثم أنشد ضرار قائلاً:

ألا فاحملوا نحو اللئام الكواذب ... لتروووا سيوفاً من دماء الكتائـــب

وردوا عن الدين المعظم في الورى ... وأرضوا إله العرش رب المواهب

فمن كان منكم يبتغي عتق ربه ... من النار في يوم الجزا والمـآرب

فيحمل هذا اليوم حملة ضيغم ... ويرضي رسولاً في الورى غير كـاذب

ثم حمل ضرار ومن معه وكانت الحرب مشتعلة كالنار تحرق الأخضر واليابس، حتى تعجب منه جبلة بن الأيهم، ثم أمر جنوده أن يقصدوا جواده بسهامهم، فانصرع الجواد ووقع ضرار فتكاثروا عليه

وأخذوه أسيراً ومعه بقية أصحابه، وساروا يريدون أنطاكية فالتقوا بيوقنا وابنة الملك.

وكان سفينة مولى النبي صلى الله عليه وسلم مع ضرار بن الأزور، فلما أُسر ضرار انطلق هارباً إلى معسكر أبي عبيدة، فإذا بأسد يعارضه، فأخبره سفينة أنه مولى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما حدث معه، فاقترب منه الأسد ثم أشار إليه برأسه أن سر، فسار سفينة والأسد إلى جانبه، حتى أتى وصلا إلى أصحاب صُلح للمسلمين، فتركه الأسد، ولما وصل سفينة إلى المسلمين، صعب على المسلمين ما حدث لضرار بن الأزور وهو من أشجع الفرسان، وبكى أبو عبيدة وخالد بن الوليد على أسره وأصحابه، وقالا: لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

هنا قاطع الوالد مصطفى وقال له: هل تعتقد بصحة رواية الأسد يا مصطفى؟

فقال مصطفى: لا أعلم يا أبي .. لكن الكرامات تحدث لأولياء الله .. فقد علمتنا ذلك .. والكرامة قد تكون في شكل معجزة تحدث لهم إكراماً لخوفهم من ربهم بالغيب وهم في قوتهم وأمنهم واجتناب معصيته وهم عليها قادرون ... ولقد علمتني أن جنود الله لا يعلمها إلا هو .. وما الأسد إلا خلق من خلق الله .. الذي فلق البحر لموسى عليه السلام .. وأحيى الموت لعيسى عليه السلام .. ولم تكن المعجزات قاصرة على الأنبياء .. فهي باقية إلى يوم الدين بأشكال مختلفة.

قال الوالد: بارك الله فيك يا مصطفى ... ولكن على المؤمن ألا ينتظر المعجزات .. بل يسعى للأخذ بالأسباب .. وحينما يريد الله تأييده بشئ سيكون .. ولكن هل ترك يوقنا ضراراً في الأسر ولم يفعل شيئاً؟

قال مصطفى: كان يجب على يوقنا أن ينتظر الفرصة المناسبة كي ينقذه .. كي لا يشك فيه أحد .. ولكن أخت ضرار .. خولة بنت الأزور بلغها خبره .. فحزنت لأسر أخيها كل الحزن، واسترجعت الله في أخيها، ثم أنشدت:

يا ابن أمي .. ليت شعري في السلاسل أوثقوك .. أم بالحديد قيدوك .. أم في البيداء طرحوك .. أم بدمائك خضبوك ..

ألا مخبر بعد الفراق يخبرنا .. فمن ذا الذي يا قوم اشغلكم عنا

فلو كنت أدري أنه آخر اللقا .. لكنا وقفنا للوداع وودعنا

ألا يا غراب البين هل أنت مخبري .. فهل بقدوم الغائبين تبشرنا

لقد كانت الأيام تزهو لقربهم .. وكنا بهم نزهو وكانوا كما كنا

ألا قاتل النوى ما أمره ... وأقبحه ماذا يريد النوى منا

ذكرت ليالي الجمع كنا سوية ... فقرقنا ريب الزمان وشتتنا

لئن رجعوا يوماً إلى دار عزهم .. لئمنا خفافا للمطايا وقبلنا

ولم أنس إذ قالوا ضرار مقيد .. تركناه في دار العدو ويممنا

فما هذه الأيام إلا معارة .. وما نحن إلا مثل لفظ بلا معنى

أرى القلب لا يختار في الناس غيرهم .. إذ ما ذكرهم ذاكر قلبي المضنى

سلام على الأحباب في كل ساعة .. وإن بعدوا عنا وإن منعوا منا

وصل يوقنا ومعه جبلة بن الأيهم والأسرى إلى أنطاكية، وسبق البشير إلى الملك هرقل بقدوم ابنته مع يوقنا ومعهم أسرى من المسلمين، فأمر بتزيين البلد ودفع الصدقات إلى الفقراء وأخرج موكب الروم إلى لقائهم في زينة عظيمة، وخرج كل من بأنطاكية يستقبلونهم، وقدموا الأسرى وهم مشدودون في الوثاق، والروم تشتمهم وتبصق عليهم، ولما دخل يوقنا وجبلة على الملك خلع عليهما وعلى كبار أصحابهما، ثم أحضروا الأسرى وأوقفوهم بين يدي هرقل، وصاحوا بهم أن اسجدوا تعظيماً للملك، فلم يلتفتوا إلى قولهم، فقال لهم الحاجب الكبير: ما منعكم أن تعظموا الملك بالسجود بين يديه؟ فقال ضرار: لا يحل لنا أن نسجد لمخلوق وقد نهانا نبينا صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

حوار الملك هرقل وأصحاب النبي

خاطب هرقل أسرى المسلمين من غير ترجمان، فقد أراد أن يسمع بطارقته بما كان قد حدثهم به حين بُعث النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه لما بلغه ظهور النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أن هذا من بشر به عيسى بن مريم، ولا بد لدينه أن يظهر حتى يملأ المشرق والمغرب، ودعاهم هرقل لأداء الجزية فأرادوا قتله، فأراد ذلك اليوم أن يبين لهم أنه أراد بنصيحته لهم النجاة والخير، فطلب هرقل من المسلمين أن يقدموا له أحداً من أهل العلم، فقدموا له قيس بن عاصم الأنصاري رضي الله عنه، وكان شيخاً كبيراً شهد جميع أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وغزواته.

فقال له هرقل: كيف نزل علي نبيكم الوحي أول مبتدأ أمره؟

قال قيس بن عاصم: سأل هذا السؤال قبلك رجل من قريش، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يأتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فينفصم عني وقد وعيت عنه، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول" .. ولقد كان ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقاً .. فأول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح .. ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه أي يتعبد الليالي ذوات العدد .. فلم يزل كذلك حتى جاءه الملك وقال له: اقرأ .. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لست بقارئ، قال النبي: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني وقال

لي: اقرأ، فقال النبي: ما أنا بقاريء، قال النبي: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف بها فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبر خديجة وقال لها: لقد خشيت على نفسي، فقالت له خديجة: كلا لا يخزيك الله أبداً، أنك تصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقوي الضعيف وتعين على نوائب الدهر والحق، ثم حمى الوحي وتتابع.

صمت قيس قليلاً ثم قال: ولقد كنت معه يوماً في المسجد إذ دخل رجل ومعه بعير له فأناخه بالباب وعقله، ودخل وقال: السلام عليكم، فرددنا عليه السلام، فقال: أيكم محمد؟ فقلنا هذا الأبيض الوجه، فقال له الرجل: يا ابن عبد المطلب قد أتيت أسألك مشدداً عليك فلا تجد علي في نفسك، فقال له: سل عما بدا لك، فقال: بربك ورب من قبلك الله أرسلك إلى الناس كلهم كافة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ فقال: اللهم نعم، فقال: أنشدك بالله، الله أمرك ان تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال: اللهم نعم، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، أنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر.

قال هرقل: بحق دينك ما الذي رأيت من معجزاته؟

قال قيس: كنت معه في سفر فأقبل إليه أعرابي فدنا منه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أتشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله؟ قال الاعرابي: ومن يشهد بما تقول؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذه الشجرة! ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الشجرة وهي بشاطىء الوادي فأقبلت إليه وهي تخط الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاث مرات، فقالت: أنت محمد رسول الله، ثم أمرها فرجعت إلى منبتها.

فقال هرقل: إنا نجد في كتابنا أن الرجل من أمته إذا عمل السيئة كتبت عليه واحدة وإن عمل الحسنة كتبت له عشراً.

قال قيس: هذا في كتابنا، قال الله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا}.

فقال هرقل: أعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم الذي بشر به عيسى المسيح هو الشاهد على الناس يوم القيامة.

فقال قيس: هو نبينا، قال الله تعالى في كتابه العزيز: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}، أما شهادته في العقبى، فهو قول ربنا في كلامه القديمك {وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا}.

فقال هرقل: إن الذي وصفته لك هو الذي يأمر العباد أن يمضوا إليه في حياته ويصلوا عليه في حياته وبعد وفاته.

فقال قيس: هو نبينا صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى في كتابه العزيز: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.

قال هرقل: إن الذي وصفه المسيح يعرج به إلى السماء ويخاطبه العلي الاعلى.

فقال قيس: هو والله نبينا صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى في حقه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى}.

وكان أثناء حديث هرقل مع قيس رضي الله عنه، كبير البطارقة يسمع هذا الحوار، فالتفت إلى الملك وقال له: أيها الملك إن الذي ذكره عيسى لم يُبعث بعده ولا قبله .. بل هي تآويل كاذبة.

فقال ضرار بن الأزور: كذبت في وجهك وكذبت هذه اللحية الملعونة المخزية يا كلب الروم .. أنت من أمثالك من يكذب عيسى عليه السلام وينكر بعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .. أما تعلم أن عيسى قرأه في الإنجيل وموسى قرأه في التوراة وقرأه داود في الزبور .. وأن نبينا المبعوث بخير الأديان المشهود له بالنبوة والرسالة في كتاب الله العزيز وجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من قبله وهو نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب المكي ... ولكن حجاب الكفر منعكم عن معرفته.

في ذلك الوقت كان خطاب أبي عبيدة قد وصل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واجتمع الناس في المسجد ليسمعوا الجديد

من أمر المسلمين، فلما دخل رباح رسول أبي عبيدة المسجد بدأ بالسلام على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قبر أبي بكر وصلى ركعتين وأتى عمر وقبل يده وعرض عليه الخطاب، فقرأه على المسلمين فضجوا بالتهليل والتكبير وصلوا على البشير النذير، وكتب إلى أبي عبيدة يأمره بالمسير إلى أنطاكية ولا يصده عن ذلك شيء، فلما وصل الخطاب إلى أبي عبيدة سار من يومه يطلب أنطاكية، ونزل أبو عبيدة على جسر الحديد وبلغ الخبر هرقل، فارتعشت أطرافه خوفاً من مصيره المحتوم، ثم استعاد نفسه وأمر جيشه بالتأهب للقتال وفتح خزائن السلاح، وأقام معسكره قريباً من جسر الحديد، وولى يوقنا على الجيش، وسلمه صليباً لا يخرجه إلا في الأيام العظام، وقال له: ".. قدم هذا الصليب بين يديك واعتمد على نصرته، فهو ينصرك"، وتوجه هرقل إلى كنيسة القيسان ومعه الأمراء كي يصلوا صلاة النصر، ثم أمر باحضار المائتين من المسلمين ليقربهم قرباناً، فشعر يوقنا بقلق شديد وفكر في حيلة.

أسرع يوقنا إلى هرقل فقبل يده، وقال له: يا عظيم الروم .. ما ولاك الله على البلاد والعباد إلا وقد علم أن عقلك يسع ذلك .. وقد قال ديسقور الحكيم: "إن العقل مرقى جليل وصاحبه نبيل لأنه عز الإنسان ومصباح الأنام" ... وأعلم أيها الملك أن العرب قد قصدتنا بعددها وعديدها .. ولا بد لنا من القتال .. ولا ندري على من تكون الدائرة .. فإن قتلت هؤلاء الأسرى ووقع أحد منا بأيديهم فإنهم لا يبقون عليه .. والصواب تركهم إلى أن نرى ما يؤول من أمرنا .. فإن أسروا من أصحابنا أحداً أو من أعياننا نفاديه.

فصدّق الأمراء والبطارقة على كلام يوقنا، واقترح عليه كبيرهم أن يحضرهم إلى كنيسة القيسان ويأمر النساء أن يتزين ويحضرن في الكنيسة، فإذا نظروا إليهن ورأوا جمالهن وطيب رائحتهن مالت أنفسهم إليهن فيرجعوا عن دينهم، فوافق هرقل، ولما حضر المسلمون وكان القساوسة يعظمون الصلبان، ويسجدون للصور والأصنام، ويرفعون أصواتهم بقراءة الإنجيل، فرفع المسلمون أصواتهم بالتكبير والتهليل، وصاحوا كذب الجاحدون، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله.

وقال رفاعة بن زهير وهو من علماء اليمن: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .. كذب العادلون عن الله أولياء الشيطان .. لا إله الا الله الواحد الرحمن .. ليس له أب محسوب .. وهو فرد صمد لا إلى شيء منسوب .. ليس له ضد ولا ند .. أوجد الموجودات وصور المخلوقات وخلق الكائنات ودبر الأرض والسماوات .. أول لا افتتاح لوجوده وآخر لا عدم لشهوده .. لا يموت ولا يفنى ولا يزول ولا يبلى .. لا شريك له ولا وزير له ولا صاحب له ولا مشير له .. ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فاضطرب جميع من في الكنيسة، فتحدث كبير القساوسة باللغة العربية، وكان يتكلم العربية بفصاحة، وقد كان ملوك الروم والبطارقة يحرصون على تعلم اللغة العربية، فقال: ما هذا إلا رجل بدوي .. يعلم بسكنى القفار وصحبة الأشرار .. والحكمة من بلادنا ظهرت وفي حكمائنا اشتهرت .. لأنها نبعت من اليونانيين ووعاها جدودنا السريانيون .. من أين للعرب حكمة يتوارثونها وعلوم يتدارسونها ..

والفضائل كلها من علمائنا والعدل في ملوكنا .. الإسكندر وبطليموس .. وسارغورس النوصيدي الذي بنى أنطاكية .. وسفليوس واريسا وكان نبياً ملكاً ... ويلينوس وهو الذي بنى الرها .. ومنبج واسطبس وهو الذي أخبر ملك زمانه أنه قد ولد مولود يخاطب الرب ويكون له شأن ونبأ عظيم .. يهلك على يديه أفلاطون وهو فرعون .. ومنافسطين الحكيم ومنا فجر العلوم .. ومناسطاليوس الذي وضع الكتاب الأول الذي فيه حوزة الأرض بجبالها وبحارها وبنائها وصوانها ووصف أمة كل إقليم بألوانها وخواصها ووصف ما في كل إقليم من معدن ذهب أو فضة أو جوهر وأحصى عيون الأرض جميعها بأسمائها وجبالها وأوديتها وشعابها وغدرانها وعجائبها .. وايردروس القلنسب الرومي وهو الذي يقول حشرني الله مع الذين يُقال لهم في الميعاد أدبروا مع إبليس وجنوده إلى النار .... ألم تطهر نفسك أيها المسكين الناظر في كتابي القاري الآبي من أدناس الدنيا وشهواتها المظلمة للنفوس المعوقة للحس الروحاني النوراني أن ترقى إلى عالم عليين ... فانظر في الحكمة فإنها سلم العالم الروحاني فمن عدمها فقد عدم القرب إلى بارئه ومصوره.

سمع رفاعة بن زهير كلام كبير القساوسة فتبسم وقال: لقد مدحت أقواماً ليس لهم إلى الفضل سبيل ولا فيهم فاضل ولا نبيل .. ولا من وحد الملك الجليل الذي ليس له مثيل ولا عديل .. وما الفضل إلا لولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل .. الذي لهم البيت الحرام وزمزم والمقام والمشعر الحرام .. ومنهم التبابعة والأقيال والحماة والأشبال .. الذين ملكوا الأرض في الطول والعرض .. ومنهم الملك الصعب الإسكندر

الذي ملك قرني الأرض ودخل الظلمات ودخل في طاعته أهل الأرض .. وبلغ مطلع الشمس ومغربها وأذل ملوكها وجعل له منهم جنداً وأعواناً .. وسماه الله ذا القرنين ... ومنهم هاديل بن عتبان وكان يتكلم بالحكمة .. ومناجاة موسى بن جلهمة بن سياسة بن عجلان بن ياقد بن رخ وثمود بن كنعان .. ومنا سبأ بن يشجب وهو أول متوج ... ومنا نفيل بن عبد المدان بن خشدم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن هود عليه السلام عاش خمسمائة سنة وهو الذي بني المصانع واستخرج الكنوز وقاد الجيوش وورثه الله علم نبيه حنظله بن صفوان ... وقد ختم الله شرفنا ورفع قدرنا إذ جعل محمداً صلى الله عليه وسلم منا ... فنحن السادة وأنتم العبيد.

شعر كبير القساوسة بالحرج أمام الملك هرقل، فأراد أن يعجز رفاعة بسؤال، فقال: يا ذا الهمم العلية والقرائح الذكية .. بم تصل القلوب إلى نسيم العقل الروحاني وترقى إلى ملكوت اللاهوت .. والطيور الخفية الغائبة عن الأبصار بالأقطار .. وترقى في رياضات الألباب المصفاة من الأدناس .. والأفكار النورانية بصفو أكدار الأخلاف المحيطة بالأفكار من الهياكل الجسمانية .. فعند الصفو من مفارقة الكدر تعيش الأرواح عيشة الأبد الذي لا يصل اليه انحلال ولا اضمحلال .. فحينئذ يختلط العنصر بالعنصر ويطفو الصفو بالصفو ويرسب الكدر إلى الكدر؟

فأجابه رفاعة بن زهير: ما أصبت أيها البترك في مقالتك ... كيف تدل القلوب إلى علام الغيوب وقد حجب عنها صواب المصيب! أم كيف

يتخلص الصفو من الكدر بغير تهذيب من الكفر! وكيف تحلى الأفكار من غوامض الأسرار وهي في حجب الاغترار! ... إذا تناهت الأهوال إلى مفازلتها وقربت الهمم من مواضعها وعادت الفكر إلى عناصرها وعادت متحركات الفكر إلى مساكنها وغاليات الأذهان إلى أماكنها .. فانحازت الأشكال عن الأشكال بلطف تأثير الهوى فيها .. وانكبت مشرفة عن هياكلها من أقطار عناصرها؟ .. أيها البترك هذا كلام العرب الذي زعمت أن الحكمة ليست من أخلاقهم ولا تباع في أسواقهم ... ولقد كان ملك من ملوك اليمن اسمه سيف بن ذي يزن .. الذي بشر بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .. يتكلم بغوامض العلوم الحكمية ووشح بوشاح شكر النعمة ... ومن جملة ما قال فصيح من فصحائنا اسمه قيس بن ساعدة هذه الأبيات:

ألا إننا من معشر سبقت لهم .. أياد من الحسنى فعوفوا من الجهلِ ولم ينظروا يوماً إلى ذات محرم ... ولا عرفوا إلا التقية في الفعلِ وفينا من التوحيد والفعل شاهد ... عرفناه والتوحيد يعرف بالعقلِ نعاين ما فوق السماء جميعها ... معاينة الأشخاص بالجوهر المجلي ونعلم ما كنا ومن أين بدأنا ... وما نحن بالتصوير في عالم الشكلِ وإنا وإن كنا على مركز الثرى ... فأرواحنا في عالم النور تستجلي وما صعدت كي تستريح وإنما ... حقيقة ممثول وجـــــلت عن المثلِ.

هنا توقف مصطفى عن القصص، وقال: ما ظننت يا أبي ... أن العرب لديهم هكذا من الفصاحة والعلم والثقافة والأصل .. لقد أعجز رفاعة

رحمه الله ذلك القس، بالرغم من علمه وفصاحته، لقد كانت مناظرة قوية للغاية ولكن الله نصر رفاعة بن زهير والمسلمين.

قال الوالد: صدقت يا مصطفى .. كم نحن في حاجة إلى معرفة أصولنا ومعرفة علمائنا وحكمائنا من العرب، لقد كانوا أفصح الأمم ولولا الشرك بالله لملكوا الدنيا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بعلمهم وحكمتهم، ولكن الله أنقذنا وشرفنا بإرسال نبيه، والحمد لله.

ثم استكمل مصطفى وقال: ولكن رفاعة بن زهير ابُتلي في ابنه، كما ابُتلى النبي الكريم نوح في ابنه، فقد كان ابن رفاعة أسيراً معه، وكان جاهلاً يميل قلبه إلى الكفر، فلما حضروا في كنيسة القيسان واشتغل رفاعة بالمناظرة، أقبل ابنه يحدق بنظره إلى الزينة والصور والصلبان، ويتأمل نساء الروم وزينتهن، فبادر إلى تقبيل الصلبان والاشراك بالرحمن، فلما رآه أبوه رفاعة بكى.

وقال رفاعة لابنه: يا ويلك أكفرت بعد الايمان .. يا ويلك طردت عن باب الرحمن .. يا ويلك كفرت بالملك الديان .. يا طريد القدرة يا من بعد عن الحضرة .. يا ولدي ما بكائي على فراقك وإنما إذا سلكت أنا في طريق وأنت في طريق .. إذا مضيت أنت إلى دار الأبالسة وحشرت مع الرهبان والشمامسة وتكون في طبقة النار السادسة .. وأنا أمضي مع محمد إلى دار فيها الأرواح مستأنسة .. يا بُني لا تطلب حياة الدنيا .. لا تختر شهوتها على الآخرة .. واخجل من فعالك إذا وقفت بين يد العزيز الجبار .. يا بُني لقد فضحت شيبة أبيك إذ كفرت بعالم السر والنجوى .. يا بُني لقد خاب أملي فيك والرجاء .. كيف

طاب قلبك أن تتبرأ من محمد المصطفى .. يا بُني ممن تطلب الشفاعة غداً؟ .. يا بُني غرتك الحياة فصرت تكفر بالعليم .. يا بُني صرت إلى الشقاء من بعد كونك في النعيم .. يا بُني أما تخشى العذاب في الجحيم .. أما تستحي من أحمد يوم القيامة .. أما تعلم أن أباك قد غدا من أجل كفرك في هموم .. أين المفر إذا دعاك الله في اليوم العظيم .. ويقول يا عبدي كفرت بواحد فرد .. يا بُني أنت في عيش ذميم .. أما أبوك فإنه يبقى بعز مقيم .. أسألك يا ولدي بما قد كان في الزمن القديم .. من حنوي وتعطفي حال الرضاعة والفطام .. ألا رجعت إلى الذي غطاك بالستر العميم.

أصر ابن رفاعة على ما مال إليه قلبه وأمره به هواه وشيطانه، فحلوه من الوثاق وغسلوه بماء المعمودية، وداروا به وبخروه، ووهبوا له مركباً وجارية ومنزلاً وتم ضمه إلى عسكر جبلة بن الأيهم، ثم عرض البترك على المسلمين أن يدخلوا في دينه كما فعل ابن رفاعة، فرفضوا وأخبروه أنهم لن يعودوا عن دينهم ولو قتلهم.

كان هرقل كل ذلك يستمع باهتمام شديد إلى أقول رفاعة، وبالرغم من علمه بأن محمداً هو نبي ورسول الله الذي بشر به عيسى إلا أنه كان يهتم بمعرفة المزيد عنه، فبدأ بدوره حواراً جديداً مع المسلمين ومع رفاعة.

قال هرقل: يا معاشر العرب .. قد وصل إلينا أن خليفتكم وأميركم يلبس مرقعة .. وقد وصل إليه من أموالنا وذخائرنا ما يكل عنه الوصف .. فما منعه أن يتزين بزي الملوك؟

قال رفاعة: يمنعه من ذلك طلب الآخرة والفزع من جبار الجبابرة.

قال هرقل: ما صفة دار أمارته؟

فأجابه رفاعة: مبنية بالطين خالية من الحُجّاب ... آنسة بالفقراء والمساكين.

قال: فما بساطه؟ .. قال: العدل والتمكين.

قال: فما سريره؟ ... قال: العقل واليقين.

قال: فما بدلة ملكه؟ ... قال: الزهد والدين.

قال: فما خزائنه؟ قال: الثقة برب العالمين.

قال: فمن جنده؟ ... قال: أبطال الموحدين.

ثم أردف رفاعة قائلاً: أما علمت أيها الملك أن جماعته قالوا له: يا عمر قد ملكت كنوز القياصرة وذللت البطارقة والأكاسرة، فهلا لبست ثياباً فاخرة؟ فقال: أنتم تريدون زينة الحياة الظاهرة، وأنا أريد رب الدنيا والآخرة، فلما أبدى هذا القول وأضمر، أشار إليه منادي القدرة وبشر: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ}[1].

بعدما استمع الملك هرقل إلى حوار رفاعة والمسلمين، أمر بوضعهم في سجن كنيسة القيسان، ثم خرج إلى عسكره ليشرف على تجهيز الخيام والسلاح والخيل وجودة الاستعداد لحرب المسلمين.

[1] الحج، ٤١

المسلمون على أبواب أنطاكية

خرج الملك هرقل يتفقد المعسكر والخيل وما لديه من سلاح أبي، وكانت السرادقات الفخمة للأمراء تحيط بسرداقه الملكي، الصلبان الذهبية في كل مكان، الديباج والأقمشة المذهبة تتزين بها الفرسان، وكأنه عُرس وليس حرباً، وبينما يطوف الملك ويتفقد في زهو ما لديه من سلاح وخيل ورجال، إذ بخيل تركض نحوه وأخبروه في الحال، أن المسلمين قد ملكوا جسر الحديد، فأرتعش الملك وشعر بخيبة أمل، وأن مدة بقاء ملكه أوشكت أن تكتمل، ثم تمالك نفسه وسأل عن أسباب ذلك الفشل، بينما لديه على جسر الحديد، الكثير من السلاح والحرس الشديد، فأخبروه أن مقدم الأبراج، هو من سلم المسلمين الجسر.

لقد دبر الله للمسلمين أولى خطوات النصر، ذلك لأن قلوبهم كانت مليئة بالصبر، وكان تعالى لطيفاً بالعباد، فقد اجتهدوا في نصرة دينه واعلاء الحق والعدل في البلاد، فمنذ عدة أيام مضت، وقعت خصومة بين المقدم وبين بعض أصحاب الملك، فقد ذهب بعض أصحاب الملك إلى الجسر، فوجدوا المقدم ومن معه يشربون الخمر، وقد غفلوا عن الحراسة، فضربوهم وأوشكوا بقتل المقدم، فملك الحقد قلبه، ثم جاءه يوقنا بعدها ليرى أي حيلة ليساعد بها المسلمين على الاستيلاء على الجسر، فرآه شديد الغضب من صاحب الملك، فتحدث معه حتى شعروا بالأمان، فأخبره المقدم أنه سيسلم الجسر للعرب، فلما تأكد من نيته، وأنه لا يريد من المسلمين إلا الأمان، فأخبره يوقنا أنه سيكتب خطاباً إلى أمير المسلمين، فيعطيهم الأمان، وحثه ومن معه على

الدخول في الإسلام، فاستنكروا ذلك لأن يوقنا قد دخل في الإسلام ثم رجع عنه! فأخبرهم بالحقيقة وأنه يقوم بحيلة ليساعد بها المسلمين في دخول أنطاكية، وكتموا جميعاً الأمر، فلما قدم المسلمون ذهب إليهم المقدم وأخذ له ومن معه الأمان، ثم فتح لهم باب الجسر.

لما وصل المسلمون مدينة أنطاكية، أراد أبو عبيدة وخالد بن الوليد اظهار قوة المسلمين، فسار كل أمير بكتيبته، الواحدة تلو الأخرى، وكانت أول كتيبة للصحابي الجليل سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومعه ثلاثة آلاف فارس فيهم المهاجرون والأنصار، وكان على مقدمة الجيش، ومن وراءه رافع بن عميرة الطائي ومعه ألف فارس وخلفه ميسرة بن مسروق العبسي في ثلاثة آلاف فارس، وورائهم خالد بن الوليد في جيش الزحف، وخلفهم أبو عبيدة في بقية العسكر، ومعه كبار الصحابة الكرام، أمثال عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وابان بن عثمان بن عفان والفضل بن العباس وأبو سفيان صخر بن حرب وراشد بن ضمرة وسعيد بن رافع وزيد بن عمرو، ومن ورائهم النساء وفيهن خولة بنت الأزور أخت ضرار، والتي كان الحزن رفيقها على أخيها، فضربت المثل في حب الأخت لأخيها، وظلت تنشد الأناشيد عليه..

ابعد أخي يلذ الغمض عيني ... فكيف ينام مقروح الجفون

سأبكي ما حييت على شقيق ... أعز علي من عيني اليمين

فلو أني لحقت به قتيـــــلةً ... لهان علي إذ هو غير هون

وكنت إلى السلو أرى طريقاً ... وأعلق منه بالحبل المتين

وأنا معشر من مـــات منا ... فليس يموت موت المستكين

وإني أن يقال مضى ضرار ... لباكية بمنسجم هتـــــــون

وقالوا كم بكاؤك قلت مهلاً ... أما أبكى وقد قطعوا وتينـــي

أما الروم فقد صفوا الصفوف وأبرزوا الخيول وتجهزوا للقاء الفاصل، وصاح فيهم الصائح بقدوم جيش المسلمين، فلما نظر هرقل إليهم قد نزلوا بفنائه، أيقن بالهلاك، فترك على جيشه صاحبه الأكبر نسطاروس بن روميل، ودخل إلى كنيسة القيسان وجمع الملوك والبطارقة والحُجاب وقام فيهم خطيباً.

قال هرقل: يا أهل دين النصرانية .. يا بني المعمودية .. قد قرب ما حذرتكم منه من زوال ملككم وذهاب عزكم من أرض سورية .. وقد كنت حذرتكم من زوال ملككم ومن هذا المقام فلم تقبلوا مني وأردتم قتلي .. وهؤلاء القوم قد دخلوا بدار ملككم ورياح عزكم فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وأنفسكم .. وإياكم والفشل لا يلحقكم في الجهاد .. فقد جاهدت عنكم جهدي وأتلفت أموالي وخزائني ورجالي عن دينكم وملككم فلم تصادفني مساعدة ولا أدركت من القوم فائدة ... فإن أنتم فشلتم وتقاعستم ولم تجردوا لهؤلاء العرب سيوف العزم ... كان العار عليكم والذلة تصل إليكم ... أين أبناؤكم ومن سلف من آبائكم ماتوا كراماً غير لئام وسكنت ديارهم العرب اللئام وكنائسهم صيروها جوامع وأخربوا البيع والصوامع ... وأذلوا ملوككم واستعبدوا أبناءكم ونساءكم وملكوا قلاعكم واستولوا على حصونكم ومدائنكم ... وقد مضى ما مضى فاستأنفوا الأمر وقاتلوا .. فكم هلك من الأمم قبلكم على

ممالكهم وعلى الغيرة على حريمهم .. ولقد كانت حكمتي أنتجت لكم أن تنسجوا على منوال المصالحة بينكم وبين هؤلاء العرب فأبيتم ذلك ... لأن ظلمة جهلكم قد أطفأت نور الحكمة ... أما علمتم أنه قد وُجد لوح من الحجر على قبر طفيماون تلميذ اقيانوس وفيه مكتوب ... الحكمة حياة القلوب وبغية الأذهان ونزهة النفوس ونور العقول ... من لم يكن حكيماً لم يزل سقيماً ... من تدبر نظر .. ومن نظر عرف .. ومن عرف عمل .. ومن عمل انفتح ذهنه وعقله .. ومن انفتح عقله صفت نفسه.

فقام إليه جبلة بن الأيهم وقال: يا عظيم الروم .. إنما قتال هؤلاء العرب بقتل خليفتهم عمر بالمدينة .. فلو أرسلت إليه رجلاً من آل غسان يقتله فيكون سبب فشلهم وانتزاع الشام من أيديهم.

قال هرقل: هذا شيء لا يصح أمله ولا ينقضي أجله لأن الآجال مقدرة والأنفاس مقررة .. ولكنه شيء تطيب النفس عند سماعه .. فافعل ما أردت.

فأرسل جبلة من قومه رجلاً جريئاً، ووعده بالأموال، فانطلق إلى يثرب ليقتل الخليفة، ودخل المدينة ليلاً، وبعدما صلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالناس صلاة الصبح ثم خرج يتنسم أخبار المجاهدين بالشام، سبقه المتنصر وجلس له بأعلى شجرة واستتر بأغصانها، وحينما حميت الرمضاء نام الفاروق في ظل شجرة، فهمّ المتنصر بقتله وجرد خنجره، فإذا هو بأسد ضخم أقبل وطاف حول

عمر ثم جلس عند قدميه يلحسهما وأقام حتى استيقظ، فعندها نزل المتنصر وقبل يد عمر وحدثه بأمره وأسلم على يديه، وقال له:

- يا عمر .. عدلت فأمنت .. الكائنات تحفظك والسباع تحرسك والملائكة تصفك والجن تعرفك.

في ذلك التوقيت، كان جيش المسلمين وجيش الروم على أهبة الاستعداد للمواجهة، وبدأت المواجهة – وفقاً للتقاليد حينها – بالمبارزة، فخرج من الروم للمبارزة فارس عملاق كأنّه برج من حديد، يُدعى نسطاروس بن روبيل، فلما توسط الميدان خرج إليه أبو الهول، فقاتلا قتالاً شديداً، ثم عثر جواد أبي الهول، وسقط أبو الهول على الأرض، فأخذه نسطاروس أسيراً، ورجع به إلى جيشه، فخرج عليه الضحاك بن حسان الطائي وكان قوياً وسريعاً، وكان يشبه خالد بن الوليد، فظنوا أنه خالد، فتجمع الجنود لرؤيته وازدحمت خيل الروم من كثرة الناظرين إليه فقطعت حبال السرادقات، فوقعت السرادقات، وخاف فُرّاش السرادقات على أنفسهم إذا وجدوها كذلك، فحلوا وثاق أبي الهول كي يساعدهم في رفع السرادقات، وقالوا له: "نحلك من وثاقك وتعيننا على رفع عمود السرادق ثم نعيدك إلى الوثاق .. فإذا جاء البطريق نشفع فيك فيخلي سبيلك"، وحلوه من وثاقه فمسك اثنين؛ كل واحد بيد وضربهما في بعضهما البعض، فماتا، وهجم على الثالث فقتله، وبحث في الأغراض فوجد صندوقاً فيه ثياب نسطاروس فلبسها، ثم ركب جواداً وأخذ سيفاً ولثم وجهه وقصد عسكر العرب المتنصرة،

ووقف إلى جانب حازم بن عبد يغوث وهو ابن عم جبلة، وكان جبلة قد قدمه على العسكر بينما ذهب هو في موكب الملك.

من ناحية أخرى كان القتال بين نسطاروس والضحاك مستمراً ولكن أحداً منهما لم يقدر على الآخر، فافترقا وعاد نسطاروس إلى سرادقه ليستريح، فوجده على الأرض والغلمان قتلى وقد اختفى أبو الهول، فمضى إلى الملك وأعلمه بذلك، فقال: "وحق المسيح ما هؤلاء العرب إلا شياطين"، وذاع خبر أبي الهول بين العسكر ففزعوا كل الفزع، فقد يكون أي فارس بينهم لا يعرفه أحد، فلما رأى أبو الهول الفزع والهرج بين العساكر، سحب سيفه وضرب به عنق حازم بن عبد يغوث فوقعت رأسه على الأرض، فُبهتوا من قوته وفُجعوا من سطوته وارتعشت أيديهم وثبتت أقدامهم لا تتحرك، وانطلق أبو الهول إلى عسكر المسلمين، فلما رأوه هللوا وكبروا.

بلغ خبر قتل حازم إلى ابن عمه جبلة، فغضب وأسرع إلى هرقل، فقال له: "يا عظيم الروم .. أنا لا أقدر على الصبر ولا بد لنا من الحملة على هؤلاء الذين قد تعدوا طورهم وجهلوا قدرهم"، وبينما هو يحدثه، إذ أقبلت خيل تركض، وأخبروا الملك هرقل أنه قد قدم إلى نصرته فلنطانوس بن سطانيوس بن أرمونيا صاحب المدائن ورومية الكبرى.

قال الوالد: ما شاء الله بطولات أبي الهول لا تتوقف .. إنه بألف فارس.

قال مصطفى: حقاً يا أبي .. غير أن الروم قد أتاهم المدد.

قال الوالد: أو لم تقرأ ماذا حدث بعد ذلك؟

قال مصطفى: لا.

قال الوالد: إن الله تعالى يقول: {وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} .. هذا المدد سيكون سبباً في هزيمة هرقل.

قال: وكيف ذلك يا أبي؟

قال: اقرأ .. وأخبرني أنت غداً بإذن الله.

خطة يوقنا وفلنطانوس

كان فلنطانوس بن سطانيوس له هيكل عظيم يُسمى أبا سرفيا، وكان به صورة نحاسية مطلية بالذهب، ولذلك الهيكل سبعة أبواب من الذهب، على كل باب هيكل على رأسه تمثال آدمي بيده عدة ألواح من الذهب، وفي كل عام يعلق لوحاً على الهيكل تجاه الشمس، ثم ينظر كاهن ذلك الهيكل في اللوح، فيعلم ما يجري في الإقليم المختص بذلك اللوح، وكان كل لوح مختصاً بأقليم من الأقاليم السبعة، وكان في داخل الهيكل الأعظم بيت لم يُفتح منذ بنيت رومية، فلما أراد فلنطانوس نصرة هرقل، كان في حاجة إلى مال من أجل عسكره، فأتى إلى ذلك البيت وأراد فتحه، وكان هناك رجل يُدعى عطماوس وهو القيم على أمر الهياكل.

فقال عطماوس: أيها الملك .. إن هذا البيت منذ أقفل تاريخه سبعمائة سنة وذلك من قبل ظهور المسيح بمائة سنة وسبعين .. وما أحد من أجدادك تعرض إليه ولا أحد ممن ولى أمر هذه الكنيسة إلا ويوصي على هذا البيت أن لا يُفتح .. فلا تزل حكمة أسسها من كان قبلك من الحكماء والملوك .. وقد بنوا هذه المدينة وأسسوا هذا الهيكل وبقي على ما بلغنا ٣٧٠ سنة وتولى عليه أجدادك حتى وصل إليك .. فلا تزل حكمة أجدادك الذين أسسوها.

حينها تردد فلنطانوس في فتح الهيكل، ثم قرر أن يفتحه، ولكنه لم يجد فيه شيئاً إلا صورة للقدس ومدن الشام وصفة ملوكهم وعددهم، وفي آخرهم صورة للملك هرقل كأنّه ينظر في اللوح، ومكتوب باليونانية:

"يا طالب العلم عليك بكثرة القراءة، إذ العلوم كلها إنما تستخرج بالعقل والقياس، وإنما يكون بكثرة الرياضة والعلم مطية التدبير، والتدبير موضع العلم، والعلم موضع العقل، هذا هو المتمم لأشكال العلوم، وقد رأينا في الحكم والأسرار الخفية أن صاحب الغمامة إذا خيمت على صفحة الأرض وحلت الضلالة خرج مصباح الهداية من أرض تهامة، فيذهب بظلام الجهل المظلم للحس ويدعو الناس بدينه إلى توحيد الصانع، وهو صاحب الجمل الأورق، فيذهب بالأديان والملك، يضيق لدعوته السهل والجبل، فإذا غلب نوره على كل كثيف انتقل إلى العلم الروحاني، وولى بعده رجل نحيف الصورة قلبه منور بنور الصدق يشيد ملته ويصدق شريعته، وويل للشام مما يحل بها من الرجل الأحور الذاهب بمُلك قيصر، وهو الرجل الكثيف صولته الربعة صورته، العدل صفته، والحق منقبته، جبته مرقعة، وسيفه درته، في أيامه تذهب الدول وتتحول وتضمحل وتزول، وأوانه إذا فُتح هذا البيت المصور بالحكمة المحفوظ بحفظ النعمة، فطوبى لمن رسخت الحكمة في قلبه وأشرقت مصابيحها في لبه وأتبع الحق وعرفه وجانب الباطل وخالفه".

لما قرأ فلنطانوس ما في اللوح تأثر وتعجب كثيراً، ثم قال لعطماوس قيم الهيكل: أيها الأب الشفيق ما تقول في هذه الحكمة؟

قال: أيها الملك وما عسى أن أقول في حكمة وضعتها العظماء وعلمت بها الحكماء، وإنما العلوم غامضة يصل إليها الخبر الجوهري بنور العقل، وإنما أرى أن دولة هرقل وهي عز دولتها وانهدت أركان ملكه

من أرض سوريا وانتقل ملك الروم إلى أرض اسطور "قسطنطينية"، وبذلك أخبر مهراييس الحكيم في كتابه العزيز الذي وضعه وسماه "اسلاوس"، يعني جواهر الحكمة، ومن جملته: إذا ظهر نور اليتيمة المصفاة من الأدناس من جبال ثاران، تصفت الأذهان بنور حكمته وانصرفت الظلمة المتكاثفة في سماء الجهل بقوة عزيمته، ودعا الناس إلى لطيف دعوته وقادهم بأزمة لطافته، فيعلو على الأفلاك، فويل لأرض إيليا من صولة صاحبه المتوشح بوشاح الهيبة، المتوج بتاج العقل، صاحب فتوح الأرض، ومذل ملوكها، العدل فسطاطه، والمرقعة لباسه، في زمانه ينكسر الصليب، وتخرج الهياكل، وتندرج المذابح، ويذوب ماء المعمودية، فلا نجاة من صولته إلا باتباع شريعته وصاحبه.

لما سمع فلنطانوس ذلك من عطماوس، كتم الأمر في نفسه، ثم قرر أن يسير إلى نصرة الملك هرقل، فاختار من جيشه في رومية ثلاثين ألفاً، وولى مكانه ولده استفليوس، واستخرج من بيت الحكمة رايات الإسكندر اليوناني، وهي منسوجة بالذهب واللؤلؤ، وكانت تلك الرايات لا تُنشر إلا في يوم واحد في السنة وهو يوم عيد الصليب في بيعة "ايا صوفيا"، ثم سار فلنطانوس حتى ورد أنطاكية.

عندما علم الملك هرقل بقدوم الملك فلنطانوس لنصرته، فرح كثيراً وتفائل بالنصر، وركب في موكبه وتوجه للقائه، وأقام له سرادقاً بجوار سرادقه، وضُربت النواقيس ووقعت ضجة كبيرة في جيوش الروم، فعلم المسلمون بذلك، فلجأ أبو عبيدة إلى ربه ورفع يده إلى

السماء وقال: "اللهم أن أعداءك يستنصرون علينا بكثرة عددهم وتزايد مددهم، فشتت كلمتهم ودمر جيوشهم وزلزل أقدامهم وعسر أيامهم، واجعل كلمتنا العليا وكلمتهم السفلى وانصرنا كنصر نبيك في يوم الأحزاب، اللهم رد كيدهم في نحرهم وانصرنا عليهم"، والمسلمون يؤمّنون على دعائه.

ثم بعث أبو عبيدة معاذ بن جبل ومعه ثلاثة آلاف وقال له: "يا صاحب رسول الله ... إن الروم قد تجمعت من سواحل البحر لنصرة دينها .. فانهض وشن الغارات على بلاد السواحل واحتفظ أن تؤتي المسلمون من قبلك"، فسار معاذ إلى جبلة واللاذقية فاحتوش أموالها وأخذ غنائمها، وقابل عنان بن جرهم الغساني ابن عم جبلة بن الأيهم ومعه الف دابة محملة براً وشعيراً لعسكر الروم، وكان قد جمعها من طرابلس وعكا وصور وصيدا وقيسارية، وقد بعث بها قسطنطين بن هرقل إلى أبيه، فأخذها معاذ ورجع قافلاً إلى عسكر المسلمين، فلما رأوها رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، فسأل هرقل عن ذلك، فأخبروه بما حدث، فغضب وقال لبطارقته: "ما بقي بيننا وبين هؤلاء إلا المصاف .. ويعطي الله النصر لمن يشاء".

أمر هرقل عساكره بالاستعداد للمواجهة الحاسمة وركب جواده وإلى جانبه فلنطانوس صاحب رومية والعديد من الملوك والأمراء، بينما أقبل يوقنا يرتب الصفوف في الحرب، فلما وقف كل ملك بجيشه وكل بطريق بأصحابه، أراد فلنطانوس ملك رومية أن يتقرب إلى هرقل بمبارزة العرب.

فقال فلنطانوس: أيها الملك ما تركت ملكي وأتيت إلى خدمتك من مائتي فرسخ إلا حتى أرضي المسيح وأخدمه بين يديك ... وإن كل عسكرك قد قاتلوا .. وأريد أن أبرز في هذا اليوم إلى هؤلاء المحمديين واشفي فؤادك وفؤادي منهم.

فقال له هرقل: الزم مكانك ولا تخرق بحرمتك وحشمتك حشمة الملوك .. فأنت أقدم مني في المملكة .. فدع غيرك يكون لهذا الأمر .. فما بلغ من شأن العرب أن تخرج أنت إليهم بنفسك.

فأجرى الله كلمات الحق على لسان فلنطانوس وقال: أيها الملك ... وأي حشمة بقيت لنا مع هؤلاء وقد أهملوا عزنا وأذلوا أعز ديننا .. والجهاد مفروض على كبيرنا وصغيرنا؟ ... أما علمت أيها الملك أنه من نظر إلى الدنيا بعين المحبة جذبته الشهوات إلى الغلو في محبتها والتعلق بزخارفها .. فإذا فعل ذلك ركب غيم الجهل على صفحة صدره فمنعه ذلك عن طلب معاده .. ومن سارع إلى طاعة خالقه بترك شهواته ارتقى إلى دار دائرة القدس في محل الأنس .. ولما علم القديم الأزلي بركون أنفسكم المحجوبة بحجاب الغفلة إلى طلب ما يفنى .. سلط عليكم أضعف أمة قد أخرجتكم من دياركم وأبعدتكم عن أوطانكم .. وما ذاك إلا لخلودكم إلى الأهواء الجاذبة إلى مهاويكم وإلى ادراك المهالك .. لأنكم حكمتم بغير الحق واجترأتم على الرعية بطلبكم منهم ما ليس لكم بحق .. والجور في أخذ أموالهم وفساد أحوالهم وكثرة الزنا وأتباع الخنا ... فلأجل ذلك لم تُنصروا ودارت دائرة السوء عليكم.

فصاح صاحب الملك هرقل ويُدعى سروند وقال: أيها السيد لا تحمل على قلب الملك من كلامك ما لا يطيق في مثل هذه الساعة .. فقد وعظه من هو أكبر منك فلم يسمع قوله.

فغضب فلنطانوس من صياح الحاجب عليه، ولكنه كتم أمره وانتظر قدوم الليل، فلما مضى بعض الليل طلب حُجّابه، واجتمع بهم، وقال لهم: أرضيتم أن يزعق علي حاجب هرقل ويوبخني بين الملوك .. وأنتم تعلمون أن بيتي أعظم من بيته ونسبه أدنى من نسبي وملكي أقدم من ملكه؟ .. ولقد قال قسيس مشهور بحكمته الذي وضع المنار الأعظم بين بلاد الجرامقة وبلاد الأنجار وهي مسيرة اثني عشر يوماً ولا يصل إلى أرضها إلا بعد عناء كبير .. فإنه قال:

لا تسع بقدمك إلى من يراك دونه فتصغر عنده ..

واجعل عز نفسك في مقابلة كبرياء عجـــــبه ..

فإن عزة النفوس تقابل جاه الملـــــــــــوك ..

ولا تصنع صنيعك لغير مستحقه فتجلب السوء ..

فإن الإحسان لا يزكو إلا عند ذوي الأصـول ..

ولا تصنع النصيحة للأرذال ..

فإنك تطلب منفعته وهو يريد بأذيتك هوى نفسه.

وقد جئنا إلى خدمة رجل يرى أننا قد قصدنا داره وتاج عزه وأننا من جملة خدمه .. وإن نور العقل المجوهر للحس يمنعني من اتباع الجهل المظلم للحواس .. والعز محل جليل ومقام نبيل والذل وبيل وصاحبه

قليل .. وقد عولت أن أسير إلى هؤلاء العرب وأختبر ملتهم .. فإنها هي الملة الواضحة بالحق المؤيدة بالصدق .. ومن كان عليها أمن في معاده من الهول الأكبر .. فما أنتم قائلون؟

قالوا: أيها الملك وكيف تطيب نفسك بترك دينك وملكك وعزك وتتبع هؤلاء وهم لا فضل لهم ولا عندهم حكمة؟

قال فلنطانوس: أما الحكمة البالغة فعندهم مقرها وفي نفوسهم موطنها .. لأن نور توحيدهم ونور إيمانهم .. ببركة صاحبهم المسمى في علوم الغيوب .. لأن مغناطيس حكمته الربانية جذب جوهر عقولهم إلى متابعته والاقتداء بشريعته .. ومن أراد أن يلقى عالم عليين فلا يقعد على صفحة أرض الجهل.

فقالوا: أيها الملك نحن ما نمنعك من عز دائم يخرجنا من الذل ومهابة الغلبة .. فإذا كنت تطلب بنا طريقاً يؤدي إلى البقاء ويذهب بالشقاء .. فالحق اتباع الحق ونفي الباطل .. فنحن لك وبين يديك.

قال: فخذوا على أنفسكم .. فإذا كانت ليلة غد ركبنا كأنّا نطوف حول البيت نحرسه .. ونطلب جيش العرب.

وبينما فلنطانوس يُخطط للسير إلى جيش المسلمين، أتاه يوقنا برسالة من الملك هرقل، فسأله فلنطانوس إذا كان من حُجّاب الملك، فأخبره أنه أمير حلب، فسأله عن سبب تركه بلده، فأخبره أن العرب استولت عليها وحدثه بحديثه.

فقال فلنطانوس: وما الذي ظهر لك من هؤلاء العرب؟

قال يوقنا: أيها الملك إني دخلت في دينهم واطلعت على أمرهم وكشفت سرهم .. فرأيت القوم لا يستمعون إلى الباطل ولا يحيدون عن الحق .. ولا ينامون الليل من كثرة اجتهادهم ولا يتكلمون بغير ذكر ربهم .. ينصفون المظلوم من الظالم ويواسي غنيهم فقيرهم .. الأمراء منهم في زي المساكين والعزيز والذليل عندهم سواء.

قال: فإذا وقفت على سرهم ورأيت فضلهم .. فما منعك أن تقيم عندهم؟

قال: منعني من ذلك صحة ديني وصحبة قومي.

قال: إن النفوس الزكية الباقية إذا رأت الحق جذبها جاذب اليقين إلى حضرة طلب الإخلاص من المعيشة الذميمة إلى أن ترقى إلى أعلى عليين.

ثم انتهى الحوار وخرج يوقنا وقد رسخ كلام فلنطانوس في قلبه وقال لنفسه: "والله ما تكلم بشيء الا وهو منقوش على صفحة صدري وكلامه يشهد بقبول عقله لصحة دين الاسلام"، وأقام يوقنا يفكر في أمر فلنطانوس، حتى أقبل الليل فأتى إليه، فرآه على نية الركوب، فسأله عن ذلك.

قال فلنطانوس: بأي حجاب حجب الله الظالمين عن اتباع سبيل المتقين .. فالحق واضح لمن طلبه والباطل خفي عمن اتبعه.

قال يوقنا: أيها الملك ما معنى هذا الكلام الذي أشرت اليه؟

قال فلنطانوس: لو أنك رأيت بعين البصيرة لما رجعت عن ملتهم ولا أردت بدلاً غيرهم .. وإنما أنت طلبت نعيماً يؤول إلى الزوال وإلى النكال.

آثر يوقنا الصمت حتى يتقين من نية فلنطانوس، ثم خرج من عنده وقد قرر أن يتجسس عليه، فوقف على الطريق الذي يوصل بمعسكر المسلمين، وركب فلنطانوس وخرج ومعه بنو عمه، وهم أربعة آلاف فارس، وساروا جميعاً يطلبون جيش المسلمين، فلما قربوا منهم، ظهر لهم يوقنا ومعه المائتان فارس من بني عمه.

سأل يوقنا فلنطانوس ليختبر نيه، فقال: أيها الملك.. عولت على أن تكبس المسلمين؟

فأجابه فلنطانوس: لا والقديم الأزلي .. إنما أنا قاصد إليهم .. وداخل في دينهم وملتهم .. وأكون من جملتهم .. فمن نظر إلى الدنيا بعين الفناء عمل للآخرة .. فما الذي يمنعك يا يوقنا مما نحن وعولنا عليه؟

فلما تأكد يوقنا من نية فلنطانوس وصدق إيمانه، حدثه بحديثه وأنه عازم على أن يغدر بالروم، نزل إليه فلنطانوس وقبّله فرحاً به، وسأله عن خطته، وهو ليس معه إلا نفر يسير!

قال يوقنا: أيها الملك إن في داخل بيتي مائتين من أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. في مقام عشرين ألفاً من الروم .. وأرى أن تعود أنت وقومك ولا تستعجل .. ونبعث رجلاً إلى أمير المسلمين يخبره بما نحن معولون عليه ... فإذا كان الغد .. تقف أنت وجيشك حول الملك هرقل .. وأدخل أنا البلد وأطلق المائتي أسير

وأعطيهم سلاحاً .. ويحمل جيش العرب وتحمل أنت وعسكرك على هرقل فتقبض عليه بنفسك .. وأسير أنا ومن معي في داخل البلد فنملكها إن شاء الله .. وإن أردت أن ترجع إلى دار ملكك ويكون أمرك علينا .. فحول أمر جيشك لمن تثق به من بني عمك.

قال فلنطانوس: ما فعلت هذا ولي نية في ملكي ولا في ملك الدنيا .. بل إذا قضى هذا الأمر ونُصر الاسلام قصدت مكة فأحج وأزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم ثم أرجع إلى بيت المقدس فأقيم فيه إلى أن أموت ... ولكن من يذهب إلى أمير العرب برسالتي ويخبرهم بما قد عولنا عليه؟

قال يوقنا: اعلم أن لهم عندنا عيوناً وجواسيس ممن هم تحت ذمتهم وأنا أعلمهم بما قد وقع.

هنا توقف مصطفى عن الكلام، فسأله والده عن سبب توقفه.

قال مصطفى: مرة أخرى تقع رؤية تساعد المسلمين على النصر، وذلك بعد رؤية أبي الهول والتي ساعدته على فتح حلب.

قال الوالد: وما العجب في ذلك يا بُني؟ ألم أخبرك بأهمية الرؤية وأنها بُشرى المؤمنين في الدنيا وتأييد الله لأولياءه؟ وقد قال تعالى: {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} وقال: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ}، فالرؤية من الأسباب التي ينصر الله بها المؤمنين ويثبتهم بها.

قال مصطفى: لقد علمت ذلك يا أبي .. لكني لم أعتقد أن الرؤية قد تجعل الإنسان يطلع على الغيب .. وهذا ما حدث لأبي عبيدة، كما أن الرؤية لم تقتصر على المسلمين فقد رأى هرقل أيضاً رؤية بزوال ملكه.

قال الوالد: إن الغيب لله وحده ولكنه تعالى قد يطلع بعض الناس على جزء يسير منه ليساعدهم في أوقات الأزمات، وهذا لا يعني أن هناك إنسان يعلم الغيب بشكل مطلق ولكنه قد يعلم واقعة معينة قبل حدوثها، كما أن الرؤية لا تقتصر على المؤمنين، فقد رأى ملك مصر رؤية في عهد نبي الله يوسف عليه كما أخبرتك سابقاً .. ولعل رؤية هرقل كانت إنذاراً من الله له ليرجع إلى رشده ويمنع القتل والدماء ... ولكن ماذا رأى أبو عبيدة يا بُني؟

قال مصطفى: غداً بإذن الله أكمل يا والدي .. فقد وجب علي النوم الآن والاستعداد لدراستي في الصباح الباكر.

قال: أعانك الله يا مصطفى .. وتذكر دائماً أن تسألني عن أي شئ يصعب عليك فهمه في دروسك يا بُني ... وفي انتظارك لتقص علي رؤية أبي عبيدة في الغد بإذن الله.

رؤية أبي عبيدة .. رؤية هرقل

بينما كان فلنطانوس ويوقنا في حوارهما تحت ظلام الليل، إذ بشيخ أقبل عليهما، وهو عمرو بن أمية الضمري ساعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم على يوقنا وعلى من معه، فعرفه يوقنا.

قال الشيخ ليوقنا: إن الأمير أبا عبيدة يقول لك جزاك الله خيراً عن الإسلام .. وإنه رأى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما كان من أمر صاحب رومية وما تحدثتما به وما وقع له مع قومه وما عزمتم عليه .. وبشره بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. وقد تفتح أنطاكية ويزول عز الروم عنها وينتزع ملك صاحبها.

فتهلل وجه فلنطانوس بنور الحق وملء الإيمان قلبه، وقال: الحمد لله الذي هدانا للإسلام والإيمان .. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .. وأشهد أن هذا الدين هو الحق اليقين.

ثم عاد فلنطانوس إلى جيش الملك هرقل كأنّه يحرسه، وظل منتظراً الفرصة للقبض على هرقل ونصرة المسلمين.

أما هرقل فقد رأى رؤية أن شخصاً قد نزل من السماء وقلبه عن سريره، فطار تاجه من أعلى رأسه، وقال له ذلك الشخص: قد قرب ما بعد وقد زال ملكك من سورية .. ذهبت دولة الشقاق والنفاق وجاءت دولة الوفاق .. ثم نفخ في عسكره فأوقده ناراً، فاستيقظ مرعوباً وعلم من تلك الرؤية أن ملكه سيزول، فعين شخصاً شبيهاً به كأنّه هو، واسمه تاليس بن رينوس، فألبسه تاجه، وأمره أن يكن مكانه، وأخبره أنه يريد بذلك مكيدة بالعرب، ثم جمع خزائنه وما غلى من التحف

ووضعهم في المراكب من حيث لا يعلم بذلك أحد، وعبى الزاد والماء، ثم أرسل أهل بيته جميعاً.

قال الوالد: وهل أسلم هرقل بعد هذه الرؤية؟

قال مصطفى: لست متأكداً .. لكن هناك رواية أنه أسلم، لذلك خاف من قومه أن يقتلوه وسافر، وما يؤكد ذلك أنه كان قد كتب في السر كتاباً إلى عمر بن الخطاب يخبره أن به ألم في رأسه لا يسكن وطلب منه دواءً، فأرسل عمر إليه قلنسوة إذا وضعها على رأسه سكنت، وإذا رفعها عاد إليه الألم، فتعجب من ذلك وأمر بفتحها، فإذا مكتوب فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال هرقل: "ما أكرم هذا الاسم وأعزه"، ثم توارثوا هذه القلنسوة إلى أن وصلت إلى أمير عمورية.

ثم إن تاليس بن رينوس شبيه هرقل أمر حاجبه بقتل الأسرى المسلمين، وبينما يوقنا في طريق عودته إلى معسكر الروم، التقى بحاجب الملك والمشاعل بين يديه، وقد خرج ومعه ضرار بن الأزور وأصحابه من الأسرى وهو يريد قتلهم والرمي برؤوسهم إلى المسلمين، فلما سمع يوقنا ذلك ضاقت الدنيا عليه، وظل يفكر في حيلة لإنقاذهم، فقال يوقنا: أيها الحاجب الكبير .. أنت تعلم أن المصاف غداً واقع بيننا وبينهم .. فإن أنتم قتلتم هؤلاء ورميت برؤوسهم إلى المسلمين .. فإنهم لا يقعون بأحد منا فيبقون عليه ... فاتقِ الله ولا تعجل بذلك ودعهم عندي وراجع الملك في أمرهم.

فتركهم الحاجب ومضى إلى الملك وأخبره بما قال يوقنا، فأمره بتركهم عنده، فرجع إلى يوقنا وأخبره بذلك، فأخذهم وسار بهم إلى خيمته، فلما

حلوا في خيمته حل وثاقهم وسلم إليهم السلاح، وأخبرهم بما قد عزم عليه هو وفلنطانوس صاحب رومية من القبض على الملك هرقل، وكان قد مر عليهم في ذلك الأسر ثمانية أشهر، وظلوا جميعاً في انتظار الساعة الحاسمة لالتقاء الجيوش.

التقاء الجيوش

في اليوم التالي، ركب تاليس جواد الملك هرقل ورتب العساكر وسار في الموكب، وكان كل من يرآه يظنه هرقل ولا يشك فيه، وركب يوقنا ومن معه وهم متنكرون تحت السلاح، وحمل المسلمون عليهم، وكان أول من حمل خالد بن الوليد بجيش الزحف ثم تبعه سعيد بن زيد ثم قيس بن هبيرة ثم ميسرة وبعدهم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وذو الكلاع الحميري وأمثالهم، وأطبق الناس بعضهم على بعض، فلما اشتبكت الحرب هجم يوقنا وبنو عمه على الروم وهجم معهم ضرار وجنوده، فقاتلوا كأشد ما يكون القتال.

قصد ضرار هو وأصحابه عسكر العرب المتنصرة وهو يقول: خذوا بثأركم ممن أسركم واحملوا .. وإياكم أن تفشلوا .. واعلموا أن الجنة قد فتحت أبوابها وزينت حورها وقصورها وأشرق بنيانها ومرح ولدانها وتجلى ديانها ... يا فتيان العرب أيكم يرغب في زواج الحور؟ .. فإن بذل النفوس هو المهور .. ومن يريد عرساً في الجنان ويقوم في خدمته الولدان؟ .. من يرغب فيما قال الملك الديان متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان؟ .. أين من شهد بدراً وحنين مع سيد الكونين؟ .. أين من يزيل عن قلبه حجاب الغفلة والرين؟ .. وافقوا قوماً صارت هممهم إلى دار الأزل فأناخوا بباب من لم يزل .. فأراد الحق أن يوقفهم على منازلهم ليزيدوا في حسن أفعالهم فكشف عن سرائرهم .. فرأوا داراً بناؤها النور .. قواعدها من الرحمة .. حيطانها من الذهب .. ملاطها المسك .. ماؤها من الحيوان .. حصباؤها الدر والجوهر .. ترابها

الكافور والعنبر .. سورها المجيد اللطيف .. ستورها الكرم .. أشجارها لا إله إلا الله .. أغصانها محمد رسول الله .. ثمارها سبحان الله والحمد لله .. عرضها السماوات والأرض .. سقفها عرش الرحمن .. فلما كشف لهم عن هذه الأسرار .. اشتاقوا إلى سكنى الدار .. قيل لهم لن تصلوا إليها إلا ببذل النفوس في رضا الملك القدوس .. ثم خلع عليهم خلع الإحسان وتوجهم بتيجان الرضوان ونشر على رؤوسهم رايات الغفران .. مرسوم على طرازها بقلم السر المكنون ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون .. لقد بذلوا النفوس في رضا القدوس.

وبينما ضرار يُحمّس أصحابه ويحمل على أعدائه، ظهر فارس شجاع يفرق سيفه الجموع وترعب صيحته النفوس، فتأمله ضرار بن الأزور فإذا هي أخته خولة، فناداها: "دارك يا بنت الأزور .. أنا والله أخوك"، فأقبلت تسلم عليه، فقال لها: "إليك عني .. ما هذا وقت سلام .. وإن قتال الكفر أفضل من كلامك يا بنت الأزور .. فاجعلي عنانك مع عناني وسنانك مع سناني وجاهدي في سبيل الله .. فإن قُتل أحدنا فالملتقى في الحشر عند حوض سيد البشر".

وبينما الجيشان في القتال كأشد ما يكون، أقبل صحاب رومية فلنطانوس ومعه أصحابه على تاليس وقبض عليه، وهو يظن أنه هرقل، وصاح جنود الروم أن فلنطانوس ملك رومية غدر بالملك هرقل وقبض عليه، فولوا جميعاً الأدبار منهزمين، وأسر المسلمون من الروم ثلاثين ألفاً وقتلوا منهم الكثيرين، كما قتلوهم سابقاً في اليرموك

وأجنادين، وقتلوا اثني عشر ألفاً من المتنصرين، وهرب جبلة وابنه في خمسمائة من المحاربين، ولما وضعت الحرب أوزارها جمع المسلمون السرادقات والمتاع والخزائن والأسرى، فلما رأى أبو عبيدة ذلك، سجد لله شكراً.

وجاء ضرار وأصحابه ويوقنا وفلنطانوس وأصحابهما وسلموا على المسلمين وفرحوا بهم، ولما وصل فلنطانوس قام إليه مشايخ المسلمين وقالوا: سمعنا نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه"، فنظر فلنطانوس إلى تواضعهم وحُسن معاملتهم وعبادتهم، فقال: "هؤلاء والله القوم الذين بشر بهم عيسى عليه السلام"، وأسلم بنو عمه جميعاً وجاهدوا في سبيل الله إلى أن فتحوا جميع الأمصار، وبعدها مضى فلنطانوس إلى مكة فحج ثم زار قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وسلم على عمر رضي الله عنه، ثم عاد إلى بيت المقدس فمكث فيه يعبد الله حتى لقي ربه.

أما ما تبقى من جيش الروم، فقد تحصن خلف أسوار مدينة أنطاكية، فدعى أبو عبيدة ربه تعالى وقال: "اللهم اجعل لنا إلى فتحها من سبيل وافتح لنا فتحاً مبيناً"، وكان على أنطاكية بطريق اسمه صليب بن مرقس وعزم على القتال من داخل اسوار أنطاكية، فاجتمع أكابر البلد إليه وسألوه أن يخرج إلى العرب فيصالحهم، فخرج إلى أبي عبيدة وحدثه في الصلح، فأجابه إلى ذلك مقابل ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب، وطلب منه أبو عبيدة أن يحلف أنهم لا يغدرون بالمسلمين، وطلب من يوقنا أن يُحّلفه.

فوضع يوقنا يده على رأس البطريق وقال له: قل والله والله أربعين مـرة وإلا قطعـت زنـاري وكسـرت صـليبي ولعنتنـي الشمامسـة والـديرانيون وخلعت دين النصـرانية وذبحـت الجمـل فـي جـرن مـاء المعمودية ونجستها ببول مولود من أولاد اليهود وقتلت كل الشـهود .. وإلا خرقت شدائد مريم وعصبت رأسي وإلا ذبحت القسوس وصبغت بدمائهم ثوب عروس وإلا جعلت مريم زانية به وإلا جعلت فـي المذبح حيضة يهودية وإلا أطفأت قنايل بيعه جرجيس وجعلت عزيراً في مقام كـالوس وإلا تزوجت يهوديـة طامثـة لا تلقـي أبـداً وإلا غسـلت أثـوابي صبيحة يوم الجمعة وهدمت الكنـائس والبيع وأحللت الأعياد والجمع وإلا عبـدت اللاهـوت وجحـدت الناسـوت وإلا أكلـت لحـم الجمـل يـوم الشعانين وإلا صمت رمضان عاطشا وكنـت للحم الرهبـان نـاهشـاً وإلا صليت في ثياب اليهود وقلت إن عيسى دباغ الجلود ... أننا لا نغدر بكم ولا كنا إلا معكم.

فتح أنطاكية

كان مصطفى يجلس في ركنه المفضل للقراءة يقرأ في قصص يوقنا وفتوحات الشام، فأقبل عليه والده وسأله: ماذا ستقص علينا اليوم يا مصطفى؟

قال مصطفى: دخول مدينة أنطاكية وما بعدها من المدن .. ويبدوا يا أبي أن فتح أنطاكية كان أهم الفتوحات في الشام .. أليس كذلك؟

قال الوالد: لقد كان انتصار المسلمين على الروم في موقعة اليرموك أهم انتصار قبل أنطاكية، وكانت بداية الفتح لمدن الشام، فلم يجد المسلمون مقاومة كبيرة بعدها إلا ما كان من يوقنا ثم في أنطاكية، لأن أنطاكية هي عاصمة الروم في الشام، ففيها يقيم الملك هرقل، ويعتبرها الروم مدينة مقدسة.

قال مصطفى: يبدوا أنه بفتح أنطاكية انتهت مملكة الروم في بلاد الشام، تلك البلاد التي نهب الروم الكثير من خيراتها، وأشاعوا الظلم بين أهلها، وكانت الفتوحات التي تلي أنطاكية أسهل بكثير مما قبلها.

قال الوالد: ومتى تم فتح انطاكية؟

قال: في الخامس من شعبان عام سبع عشرة من الهجرة، دخل أبو عبيدة أنطاكية، دخل وبين يديه اللواء الذي عقده له أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعن يمينه خالد بن الوليد وعن يساره ميسرة بن مسروق والقراء بين يديه يقرأون سورة الفتح، فلم يزل سائراً حتى وصل إلى باب الجنان، فنزل هناك وخط هناك مسجداً وأمر ببنائه.

كانت أنطاكية مدينة طيب هوائها، نقي مائها، كثيرة خيراتها، فاستطابها المسلمون، وودوا لو فيها شهراً يقيمون، فما تركهم أبو عبيدة غير ثلاثة أيام يستريحون، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخبره بالفتح المبين، وقال له: ".. وأعلمك يا أمير المؤمنين أن الله عز وجل قد فتح على المسلمين كرسي النصرانية مدينة أنطاكية .. وكسر الله عسكرها ونصرنا الله عليهم وهرب هرقل في البحر .. وإني لم أقم بها لطيب هوائها وخشيت على المسلمين أن يغلب حب الدنيا على قلوبهم فيقطعهم عن طاعة ربهم .. وإني معول على المسير إلى حلب .. وإني منتظر أمرك .. فإن أمرتني أن أسير إلى داخل الدروب فعلت وإن أمرتني بالمقام أقمت ... واعلم يا أمير المؤمنين أن العرب قد نظرت إلى بنات الروم فدعتهم أنفسهم إلى التزوج فمنعتهم من ذلك .. وإني أخشى عليهم الفتنة إلا من عصمه الله .. فعجل إلي بأمرك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين".

سار زيد بن وهب برسالة أبي عبيدة إلى الفاروق وجعل يطلب أقرب الطرق حتى قدم المدينة، فإذ بضجة عظيمة وأهلها يهرعون نحو البقيع وقباء، فرأى زيد رجلاً يعرفه، فسأله عن ذلك، فعلم أن أمير المؤمنين يريد الحج ومعه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يحج بهن والناس يشيعونه، وسأله الرجل عن سبب قدومه، فأخبره أنه رسول أبي عبيدة أتى بالبشارة، ثم أسرع زيد حتى وقف بين يدي عمر رضي الله عنه وهو يمشي ووراءه مولاه يقود بعيراً، والهوادج بين يديه، وعن يمينه علي بن أبي طالب وعن يساره العباس ابن عبد المطلب ومن ورائه المهاجرون والأنصار وهو يوصيهم بالمدينة.

وقف زيد بن وهب بين يدي الفاروق وأخبره بالبشرى، فقال عمر: "بشرك الله بخير .. فما بشارتك"؟

قال زيد: هذا كتاب من عاملك أبي عبيدة يخبرك أن الله قد فتح على يديه أنطاكية.

فلما سمع عمر ذلك، خر لله ساجداً يمرغ خديه على التراب، ثم رفع رأسه من سجوده وقد تترب وجهه وشيبته، ثم قرأ الكتاب، فلما قرأه بكى فسأله علي كرم الله وجهه عن سبب بكائه.

قال الفاروق: مما صنع أبو عبيدة بالمسلمين وبما استعقب رأيه في الموحدين ... إن النفس لأمارة بالسوء.

ثم دفع الفاروق الكتاب إلى علي، فقرأه على المسلمين، وتوقف عمر عن البكاء ثم جلس على الأرض وكتب إلى أبي عبيدة هذه الرسالة: "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك .. وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه وأشكره على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل بنا لطيفاً معيناً ... وأما قولك لم نقم بأنطاكية لطيبها فإن الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات ... فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} .. وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ} ... فكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون أبدانهم من نصب القتال مع من كفر بالله ... وأما قولك أنك منتظر أمري فالذي آمرك به أن تدخل وراء العدو وتفتح

الدروب فإنك الشاهد وأنا الغائب ... وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب ... وأنت بحضرة عدوك وعيونك تأنيك بالأخبار ... فإن رأيت أن دخولك إلى الدروب بالمسلمين صواب فابعث إليهم بالسراية وادخل معهم إلى بلادهم وضيق عليهم المسالك ... ومن طلب منك الصلح فصالحهم ووفِ لهم بما تقدر ... وأما قولك أن العرب أبصرت نساء الروم فرغبت في التزوج .. فمن أحب ذلك فدعه إن لم يكن له أهل بالحجاز .. ومن أراد أن يشتري الإماء فدعه فإن ذلك أصون لفروجهم واعف لنفوسهم .. وما تحتاج أن أوصيك في أمر فلنطانوس صاحب رومية أوسع عليه في النفقة وعلى من معه فإنه قد فارق أهله وملكه وأمره ونهيه ... والسلام عليك وعلى جميع المسلمين".

ثم دفع الفاروق برسالته إلى زيد بن وهب وقال له: "انطلق رحمك الله .. وأشرك عمر في ثوابك"، فلما همّ زيد أن يسير قال له: "على رسلك حتى يزودك عمر من قوته"، ثم أخرج له تمراً وأعطاه صاع تمر وصاع سويق، وقال: "يا زيد أعذر عمر .. فهذا ما أمكنه" ثم قبّل عمر رأس زيد، فبكى زيد وقال: "يا أمير المؤمنين أو بلغ من قدري أن تقبل رأسي وأنت أمير المؤمنين وصاحب سيد المرسلين وقد ختم الله بك الأربعين"؟ فبكى عمر وقال:

"أرجو أن يغفر الله لعمر بشهادتك"

وبينما زيد قد استوى على ناقته، سمع عمر رضي الله عنه يقول: "اللهم احمله عليها بالسلامة واطوِ له البعيد وسهل له القريب إنك على

كل شيء قدير"، ففرح زيد بدعوته وعلم أن الله لا يردها، فكانت الأرض تُطوى من تحته طياً، فوصل في اليوم الثالث.

أما أبو عبيدة فقد كان رحل عن أنطاكية حينما وصله خطاب أمير المؤمنين، ولما وصل زيد إلى عسكر المسلمين سمع ضجة وجلبة، فعلم أن الله تعالى قد فتح الله على المسلمين، فقد أغار خالد بن الوليد على شاطىء الفرات، فصالحه أهل منبج وبزاعة وبالس، على مائة ألف وخمسين ألف دينار، بعد أن هرب صاحبهم جرفناس بأمواله وعبيده إلى بلاد الروم، وبني خالد قلعة إلى جانب "بالس" من الشرق وسماها باسمه، وعاد بالأموال والأثقال يوم قدوم زيد.

وصل خطاب الفاورق إلى أبي عبيدة وهو جالس وخالد إلى جانبه وقد قدم مال الصلح، فقرأه على المسلمين، ثم قال أبو عبيدة: معاشر المسلمين إن أمير المؤمنين قد جعل أمر الدخول إلى الدروب إلي .. وقال أنت الشاهد وأنا الغائب .. وأنا لا أفعل شيئا إلا برأيكم ... فما تشيرون علي أن أفعل رحمكم الله؟

يوقنا وفتح الحصون

قرر أبو عبيدة بعد مشورة أصحاب الرأي من المسلمين أن يعبر إلى حصن "أسعرد" ثم "يمهرد"، وذلك بعدما قدم عليه أهل حصن "طنز" للصلح، وقد قال لهم خالد: "من أسلم منكم قبلناه وكان له ما لنا وعليه ما علينا ومن بقى على دينه كانت عليه الجزية من العام القابل"، فأجابوه إلى ذلك، ثم سار المسلمون إلى يمهرد وأسعرد والمعدن وأرزن فتصالحوا أيضاً.

أما يوقنا فقد أراد السير إلى صاحب "بدليس"، وكانت بدليس وغيرها من القلاع لبطريق اسمه "سروند بن بولص"، وكانت ابنته "طاريون" موجودة في بعض الحصون التي فتحها المسلمون، فاختلت بيوقنا وقالت له: "يا عم لا تظن إني هاربة ولا إلى الروم طالبة .. وإنما أريد أن أنصح لله ولرسوله وللمسلمين .. وأريد أن أغدر بأبي وأقتله وأسلّم معاقله للمسلمين ... لكن يا عم أشر علي بما أصنع فأنت تعلم أن هذا الدرب لبدليس .. وإذا أرادت العرب العبور فليس لهم قدرة فما الذي تراه؟ .. وأخاف إن حصلت عند أبي أن لا أقدر على الرجوع"، فقال لها يوقنا: "اعلمي إنك إذا سرت بهذه النية فإن الله جل وعلا يفتح عليك أبواب الخير وأمضى على ما أنت عليه ... وأنا لا بد لي أن أمضي برسالة الأمير إلى أبيك .. وها أنا أبكر .. فإذا حصلنا هناك كان لنا من التدبير ما يريده الله ونصل إن شاء الله إلى ما نريد"، ثم ودعته وقالت لمن معها مخادعة لهم: "إن هذا العديم العقل يلح علي كي أعود عما عزمت عليه من الرجوع إلى دين المسيح .. ولولا أنني أخاف ممن

معه ومن صاحب هذا الحصن أن يعينه علينا لكنت قبضت عليه"، ثم سارت تجد السير وأرسلت بعض غلمانها يبشر أباها بقدومها، فلما وصل البشير ارتجت المدينة وركب أبوها والبطارقة وأهل البلد لملتقاها، فلما رأت أباها ترجلت وترجل أبوها وضمها إلى صدره، وقالت طاريون له: إن "يرغون" نصب علي ووصل بي إلى عسكر المسلمين وأسلم .. فلم يمكنني إلا أن أطاوعه خيفة منهم .. فهربت إليك.

فصلب أبوها على وجهه وهنأها بالسلامة وساروا إلى أن دخلوا البلد ودار المملكة، فبكت طاريون فرحاً وأخرجت الصدقات والنذور للبيع والكنائس، وظلت تحدثهم بما جرى لها، وسألها والدها عن دين المسلمين، فأجابته قائلة: أيها الملك .. إن القوم يتظاهرون بالدين وأنهم يطلبون العدل حتى يرجع الناس إليهم .. وليس والله دين أفضل من دين المسيح .. وقد نذرت متى خلصت من العرب ألا أقرب قرباناً ولا أشرب خمراً ولا آكل لحم خنزير ولا أنغمس في ماء المعمودية حتى أتعبد في بيعة يوحنا شهرين كاملين ... فإذا تطهرت من دينهم أقرب القربان وأقبل الصلبان.

في اليوم التالي مضت طاريون إلى البيعة وأخلت لها موضعاً وجعلت تتصدق على الفقراء وتظهر النسك والعبادة وأقامت تنتظر ما وعدها به يوقنا من القدوم إلى أبيها. أما يوقنا فقد اجتمع بعياض بن غنم وحدثه بأمر طاريون وما اتفقا عليه وأنها قد وهبت نفسها لله تعالى ومضت تدبر كيف تعمل في تسليم البلد للمسلمين، وقد وعدها بالسير إليها

ومساعدتها على ذلك، فأخبره عياض أنه يجب أن يطلع خالد بن الوليد على الأمر ويأخذ رأيه هو وأصحابه من كبار قادة المسلمين، ثم أرسل إلى خالد ومعاذ وقيس وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وغيرهم من القادة رضي الله عنهم وحدثهم بالحديث، فوافقوا ولحق بهم خالد بن الوليد.

سار خالد مع خمس وثلاثين من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، بصحبة يوقنا وعشرين من أصحابه، فلما وصلوا نظرت إليهم الروم والأرمن فعلموا أنهم رسل من العرب فأعلموا بذلك الملك، وأتتهم الحجاب إلى باب رومية (باب بدليس)، فأخذوهم إلى الملك بوسطيرس، فلما توسطوا الدهليز أرادوا أن يأخذوا أسلحتهم.

فقال خالد: إنا قوم لا نسلم سيوفنا لغيرنا .. وإن الله بعث نبينا بالسيف وقد قلدنا إياه .. ولسنا نزيل ما خصنا الله ورسوله به.

فدخل الحُجاب وأعلموا الملك بذلك، فأذن لهم الملك بأن يدخلوا كيفما شاءوا، لئلا يظنوا أنه يخافهم، ولما دخلوا سلموا عليه وجلسوا على الأرض كأنهم السباع، وكل منهم قد جعل يده على مقبض سيفه، وكان الملك على علم بأنهم رجال دين وزهد فأوصى حجابه بألا يأمروهم بأن يصقعوا له، لأنهم لن يجيبوهم لذلك، فلما استقروا سألهم الملك عن سبب قدومهم.

قال يوقنا: إن أمير جيوش المسلمين بأرض بدليس قد بعثنا إليكم رسلاً ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده

ورسوله .. أو تدخلوا فيما دخل فيه الناس وتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون.

فغضب الملك وقال: وحق المسيح والانجيل لا نعطي ولا ندخل في دينكم أو نموت عن آخرنا .. ولا تحسبوا أننا مثل من لاقوا من جيوش الروم ولنا الشدة والبأس والقوة والمراس .. ونحن نرمي عن الأقواس بالنشاب .. والعرب تسميه قاطع الشهوات والأسباب .. وأنا أبعث واستنصر بصاحب خو وسلوس واسراغوص ملك المرج ونردكم على أعقابكم ونستخلص البلاد.

فقال يوقنا: لتأذن لنا بالانصراف لنعلم صاحبنا بهذا الجواب.

فقال الملك: بيتوا عندنا هذه الليلة وفي غد تنصرفون.

وأمر بهم أن ينزلوا في منزل، وخرجوا من عنده إلى ذلك المكان، فنزلوا به ينتظرون ما يكون من الجارية طاريون، بينما ذهب الملك إلى بيعة يوحنا واجتمع بابنته وأخبرها أن العرب قد وجهوا اليه رسولاً، وأخبرها بما قاله له، وأنه قد عوقهم الليلة، كي يسألها عن رأيها في ذلك.

فقالت طاريون: من الصواب أن نمضي أنا وأنت إلى هؤلاء العرب ونجلس عندهم ونأكل معهم حتى يطمئنوا إلينا .. وأقول لهم أني أريد أن أشاور أهل بلدي وأرباب دولتي .. فإما أن نصالحكم ونؤدي إليكم الجزية أو نقاتلكم .. ثم نبعث إليهم طعاماً مبنجاً .. فإذا أكلوه وحكم فيهم البنج قبضنا عليهم ونفعل بهم ما نريد .. وأريد أن أنظر من هم فإنه لا يخفى علي أمرهم .. فإن كانوا من وجوه العرب النافذ أمرهم .. أتحدث

معهم وأطيب قلوبهم بأنك تصالحهم .. فإذا اطمأنوا بذلك أمرتك بالقبض عليهم واتركهم عندك حتى لا يكون لهم خلاص .. فإذا قبضت عليهم ترسل إلى صاحبهم تقول له متى تقدمت إلينا مرحلة واحدة بعثت إليك برؤوسهم .. فإذا سمع ذلك لا يتقدم ويقع الصلح على أن نسلم إليه أصحابه .. وينصرك المسيح ويطول عمرك ويرفع قدرك وينصرفون عنك.

فقال الملك: يا بُنية .. المسيح يطيل عمرك ويرفع قدرك فقومي إليهم ودعي هذه البيعة والزمي البيعة التي في دارنا فإنك كلما أقمت ههنا كان أخوف بنا .. وإن كان مقصودك العبادة ففي أي مكان كنت فيه فإن لك معبداً.

وقدموا لها بعض مراكب أبيها فركبت ومضت إلى المكان الذي فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يدخل عليهم سوى هي والملك، فلما رأت يوقنا فرحت واستبشرت.

ثم قالت طاريون: أيها السيد .. إن أبي جاهل بكم غير عارف بقولكم .. وسوف أكشف له عن أموركم .. وحق ديني ما رأيت منكم إلا خيراً وسوف أجازيكم على ذلك .. ولولا محبة الأهل والوطن ودين المسيح ما كنت فارقتكم.

ثم خرجت طاريون هي وأبوها ومضت إلى القصر، وقالت له: ابشر بما يسرك .. هؤلاء وجوه القوم وساداتهم والذي عليه زي الروم هذا يوقنا بطريق حلب الذي طرده المسيح عن بابه .. والرأي عندي أن

نطلبهم عندنا إلى هذا القصر ونقبض عليهم بحيث لا يقف أحد على سرنا.

فرح الملك بقول ابنته، وبعث إلى الصحابة فأتى بهم وأنزلهم بعض حُجر القصر، ثم أتت طاريون والملك وتحدثوا معهم ساعة كي يطمئنوا، وفي اليوم التالي انشغل الملك بأمور مملكته، وعلمت أبنته أنه منشغل بذلك، فأتت إلى الصحابة وأخبرتهم بما اتفقت عليه مع الملك، وأن عليهم حينما يأتي ألا يمهلوه، فشكروها على ذلك، ولما جاء الليل جاءت ومعها أبوها الملك ولكنها أشارت إليهم بأن لا يعجلوا عليه، فتحدثوا ساعة ثم خرجا من عندهم، وذلك لأن الملك كان قد أخبرها أنه ليس من الصواب القبض على رسل العرب، فإن الملوك لا يقبضون على الرسل، وأخبرها أن بعض الملوك في الطريق إليه، وأنه سوف يجمع البطارقة وولاة الأمر من الحصون والقلاع ويأخذ عليهم عهداً أن لا يعصوا لها أمراً أبداً، ثم يرسل المال والذخائر إلى قلعة يرقبوس لأنها قلعة منيعة في وسط بحيرة أرجيس ولا سبيل لأحد عليها، فإذا تولت العرش يطلق الرسل، ويستعد لحرب المسلمين، فإن تحقق النصر وإلا فليس أول من هُزم من ملوك الروم، ثم إنه أرسل إلى الملك درفشيل صاحب أرزن الروم بأن يأتي بجنوده وعدته وعدده، ووعده أن يزوجه بابنته فاورثه أخت طاريون.

ثم إن طاريون نصحته فقالت له: أيها الملك إذا عزمت على هذا الأمر .. فلا تترك هؤلاء يمضون حتى يجتمع العسكر ويقدم الملك درفشيل

بجيشه ولا يتخلف عنك أحد .. وبعد ذلك اترك هؤلاء .. فإذا ساروا إلى صاحبهم فسر أنت في أثرهم بالجيوش وأكبس عسكرهم.

فقال الملك: يا بُنية .. ليس من الرأي أن نطلقهم من أيدينا .. بل نبعث إلى صاحبهم نقول له أنهم مكرمون عندنا .. وقد رأينا أننا في يوم عيد ندبر فيه أمرنا .. فإما أن نصالحكم بأداء الجزية وإما أن نقاتلكم .. والله ينصر من يشاء .. ونأمرهم أن ينزلوا في مرج بطان فإنه مرج واسع يصلح لملتقى العساكر .. ونحن أخبر منهم بالبلاد ونمسك عليهم الدروب .. فما ينجو منهم أحد .. ونسير إلى ديار بكر فنملكها ونأخذ أرض ربيعة ولا يبقى في هذه البلاد ملك سوانا.

فوافقته طاريون وتركته وانصرفت، فلما انشغل عنها الملك، أتت إلى الصحابة وأعلمتهم بما قال.

فقال خالد: الله يسر لنا الأمر من غير تعب .. وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

فقال يوقنا: وكيف ذلك يا صاحب رسول الله؟

قال خالد: .. نحن أمورنا بحمد الله منوطة بالنصر .. وقد كفانا كل أمر .. واعلموا أن هذا الرجل قد عول أن يبعث ليجمع ملوكه وجيوشهم .. ويحرضهم على قتالنا .. والصواب أننا نصبر حتى يجتمعوا.

قالت طاريون: لقد نطقت بالصواب يا صاحب رسول الله ووفقت .. ولعل أن يحصلوا كلهم في أيديكم إن شاء الله .. فإن أبي لا يقدر أن يوليني إلا في البيعة بحضرة أصحاب القلاع والحصون .. ويأخذ لي

عليهم العهد .. وبعد ما يفعلون ذلك تثورون عليهم إن شاء الله .. ولعل أن يكون في جملتهم صاحب أرزن .. ونرسل العبد الصالح يوقنا بزي صاحب أرزن .. فلعله يملكها إن شاء الله تعالى ..ونكون ظفرنا بالأرب وخرجت من عندهم.

ولما أستقر الملك على ما ظن فيه نصره، أرسل إلى ولاة الحصون ليحضروا عنده، فلم يتخلف منهم أحد وأتوا أجمعين، وأتى الملك درفشيل هو وجنوده أجمعون، وكان اجتماعهم في ليالي عيدهم العظيم، وزينوا البيعة وجاء الرهبان من كل مكان، ودخلوا البيعة وصلوا وقربوا القربان، فلما فرغوا جلس الملك على سريره، وابنته واقفة عن يمينه، وأخبرهم الملك أنه ما جمعهم إلا لأمر يعرضه عليهم، فيه سداد أمرهم وملكهم ودينهم، وقد عول على أن يولي الملكة طاريون أمرهم، فإنها من أصحاب العقل والرأي والشجاعة، ولديها القدرة على التدبير في الحرب ببراعة، فإن مات الملك في الحرب تكون هي الملكة، وإلا رجعت إليه بالبيعة، فوافقوا جميعاً على تلك الخطة، وأخبروه أن نعم الرأي هو رأيه، والأمر له وما يخالفونه في أمره، فوثب الملك من توه، وأزال التاج عن رأسه، ووضعه على رأس طاريون، وأمسك بيدها وأجلسها على العرش، ووقف عن يمينها كأنّه حاجب، ووقف صاحب أرزن عن يسارها، وبايعها الرهبان والملوك، وأخذوا لها عليهم العهد والمواثيق، وبعدها زوج أختها بولد صاحب أرزن، وأقيمت الولائم وتزينت المدينة، ثم ضربوا خيامهم بظاهر البلد واستعدوا لقتال المسلمين.

من ناحية أخرى، كان عياض بن غنم لما طال غياب خالد ويوقنا وأصحابهما عند الملك، خاف عليهم، فارتحل من بدليس إلى أرض أرزن، ونزل بالمرج ووجه عيونه إلى الملك، فغابوا عدة أيام ثم عادوا إليه وأخبروه أن الملك قد ولى ابنته طاريون على المملكة، وعقد لها التاج على رأسها، وبايعها الملوك وزينوا المدينة من أجلها، وقدم صاحب أرزن وزوج أخت الملكة لابنه، وقد عولوا جميعاً على قتال المسلمين، فلما علم عياض ذلك قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .. غدروا أصحابنا"، فسألوه عن ذلك، فقال: "لأن أصحابنا مضوا لأمر يرومونه .. وقد وفد عليهم"، فقال له أصحابه: "ثق بالله وتوكل عليه"، وأقام عياض على المرج عشرة أيام ومرض حزناً على أصحابه، فأتاه الناس يعودونه، فقال: "إذا أراد الله بعبده خيراً زاره الناس".

ثم شفى الله عياضاً، فركب مع وجوه الصحابة وساروا وهو مشغول على خالد ومن معه، وأثناء ذلك أتاه سعيد بن زيد وأخبره أن يدرك خالداً وأصحابه، فسأله عياض عما حدث، فأخبره أن الملك قد ولى على الحكم طاريون وجعل العهد لها، ثم إنها قتلت أباها، وأرسلت رسلها خلف الملوك على لسان أبيها، فعادوا إليها فقتلتهم، ولكن بعض أتباعها ساروا إلى باقي الملوك والبطارقة فأخبروهم بما صنعت، فلبسوا السلاح واستعدوا لقتالها، فلما كان بالأمس ركبت طاريون في جيشها إلى الميدان وركب خالد وأصحابه، ولكن القوم بادروهم وأطبقوا عليهم، فقاتلوا قتالاً شديداً ما سمع أحد بمثله ومُلئت الأرض من القتلى، ولما أسدل الليل ستاره انفصل الجيش مع ملك أرزن وبقي

مع طاريون عدد قليل من جنودها، فبعثت إلى الملك تخبره أنها ما فعلت ذلك إلا شفقة، لأن أباها أراد أن يقبض على رسل العرب ويقتلهم، ولو تركته يفعل ذلك، لما ترك المسلمون منهم أحداً ولقتلوهم جميعاً، فلما بلغه ذلك وأخبر به قومه، دعمّ الحكماء منهم كلامها وأفعالها، وأجابها منهم خمسة آلاف رجل.

لما سمع عياض كلام سعيد، أمر جنوده بالرحيل وسار إلى أن أشرفوا عليهم، فإذا بالحرب قائمة على أشدها، فكبر عياض ومن معه وحملوا على الأعداء، فارتجفت من تكبيرهم قلوب أعدائهم، وكان خالد وأصحابه يقاتلون كأشد ما يكون القتال، حتى انفصلت الجيوش، وافتقدوا من قُتل، فوجدوا من بادية الأعراب مائة وعشرين رجلاً.

أما معاذ بن جبل رضي الله عنه فقد افتقد ابنه، وظل يبحث عنه فلم يجده حتى جن الليل، ثم وجده بين القتلى وقد ملئت الجراح بدنه، وروحه تفيض إلى خالقها، فحمله إلى رحله وجلس عند رأسه، وكان هناك بعض الرجال مع معاذ فبكوا حزناً عليه، فلما رآئهم يبكون، قال لهم: "مه وهذه الغزوة أحب الي من كل غزوة غزوتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم"، ولما أُذن للظهر وصلى الناس، دفنه معاذ وهو متضمخ في دمائه، وجاء بعض الناس بعد دفنه، فقالوا لمعاذ: "يرحمك الله .. هلا كنت انتظرتنا حتى نحضر جنازته"، فقال: "ليس ذلك من السُنة ..وإن ذلك فعل الجاهلية ... ولكنا أمرنا بانجاز موتانا"، فلما دفنه ورجع إلى رحله غسل رأسه ولحيته واكتحل ولبس برديه، وكان يكثر من الابتسام والتكبير وليس به إلا ما يسليه عن ذلك، وقال: "هنيئاً لك

يا ولدي .. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من مات له ابن وكان به ضنيناً وكان عليه عزيزاً فحسن عليه عزاؤه ولم يُر منه شيء في قضاء الله، إلا غُفر له وللميت وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجه الله من الحور العين»[٢].

ولما طلع النهار ركب المسلمون وطلبوا الجهاد، فإذا بخيل قد أتت وعليها فرسان بغير سلاح، فلما قربوا منهم ترجلوا وقصدوا الأمير فسألهم يوقنا من يكونوا، فأخبروه أنهم أصحاب ارزن الروم ومعهم ملكهم "درفشيل"، وأشاروا إلى رجل منهم حسن الشيبة.

وقال درفشيل: إن الله دلني عليكم وكنت قد بت الليلة على نية القتال .. فرأيت المسيح بن مريم في النوم وهو يأمرني باتباع محمد .. وقال لي: "إن نبي هؤلاء العرب هو الذي بشرت به .. فمن عدل عنه فليس مني".

فترجل يوقنا هو وجميع من معه وساروا إلى عياض وحدثه بما حدث، فقام له وصافحه هو والمسلمون، ثم أسلم درفشيل هو ومن معه، ففرحت بذلك طاريون وسلمت إليه أختها وسار بها إلى أرزن الروم، وأرسلوا معه عشرة من المسلمين ليدعوا أرزن الروم إلى الإسلام ويعلموهم شرائع الدين. ثم ودع درفشيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتحل والعشرة معه حتى وصل أرزن الروم، ففرح أهل المدينة بهم وخرجوا للقائهم، فلما استقر الملك في مجلسه طلب أكابر

٢

الناس وحدثهم بما رآه وعرض عليهم الإسلام، فأسلم أكثرهم وأقبل العشرة يعلمونهم شرائع الإسلام والقرآن.

وأقر عياض طاريون على حصنها وبعث إلى خوى وسلواس وما يلي تلك الأرض فأسلم أهلها إلا القليل وبعث من المسلمين رجالاً يعلمونهم شرع الله تعالى.

قال مصطفى: الآن انتهت القصص التي قرأتها يا أبي عن يوقنا .. ولا أدري ما هي نهايته ولا كيف فعل بعد ذلك.

قال الوالد: مثل هذا الرجل لا يهدأ حتى يسلم روحها إلى بارئها .. لا شك أنه استمر في نصرة الإسلام حتى ما بقي حصن إلا فتحه أو مات دون ذلك ..

قال مصطفى: رحم الله يوقنا رحمة واسعة .. لقد تحول من أشد أعداء الله إلى نصرته تعالى بكل إخلاص ويقين .. سأظل أتذكره دائماً .. وغفر الله له.

قال الوالد: اللهم أمين.

تم بحمد الله